كتب سياسية

الكتاب الخامس بعد المائة

مجموعة عربية ١٠٠٪

عُمان

قديما... وحديثا

محمد علي الزرقا

الجزء الثاني

كتب سياسية

الكتاب الخامس بعد المائة

عُمان

قديما ... وحديثا

الجزء الثاني

محمد علي الزرقا



خريطة تبين موقع عمان بالنسبة للهند

الفصل العاشر

النفوذ الانكليزى

تغلغله • تطوره • منافسوه

تغلغل النفوذ الانكليزى :

منذ أن وصلت انكلترا الى الهند ، وأصدرت الملكة اليزابث مرسومها الشهير فى عام (١٦٠٠) بتخويل شركة الهند الشرقية ، حق احتكار التجارة فى الهند أصبحت الهند ، قوام حياة الاستعمار الانكليزى ، ودرة التاج البريطانى ، والعامل الاكبر فى تفوق انكلترا، وسطوتها ، خلال ثلاثة قرون ، هى (القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر) ، بل وحتى أوائل القرن العشرين •

لقد نهب الانكليز كنوز الهند ـ خلال حكمهم لها ـ ، واستطاع التجار الانكليز ، أن يجمعوا أكداس الذهب والفضة وغيرها من المواد وأن يقيموا ـ بواسطة ذلك ـ الرأسمالية الصناعية فى بلادهم • تلك الرأسمالية ، التى أخذت تزدهر فى الوطن الام (بريطانيا) ، ثم تفيض منها مع الزمن ، الى البلاد الاخرى ، وخاصة الى المستعمرات •• حيث تقوم باستغلال أكبر ، لشعوب المستعمرات ، ولثرواتها الدفينة •

واتخذ الانكليز من الهند ، سوقا أولى ، يصرفون منتجاتهم فيها ويحصلون من موادها الاولية ، على ما تحتاج اليه صناعتهم • ثم تحولت الهند ، الى حقل واسع ، لاستثمار رؤوس الاموال الانجليزية واستغلال الشعب الهندى ، وامتصاص قواه البدنية ، فى ظروف قاسية مهينة ، لا حدود لقسوتها • دون أن يقيموا أى وزن ، لكرامة الانسان ، أولمبدأ من مبادىء القانون الدولى ••

ولم تكن تختلف ، معاملة بريطانيا بالنسبة لاصدقائها أو أعدائها فطبيعة وجودها هو استغلال العدو والصديق • الحليف والثائر ، بدون تمييز •

كانت انكلترا لا تتردد ، من أن تخون من وثق بها • أو أن تتخلى

عن حلفائها ، فى احرج المواقف ، أو أن تنكث بالعهود التى أبرمتها ، أو أن تمون أعداء أصدقائها ، فتاريخها زاخر بهذه المخازى .

كان المقيمون البريطانيون فى المستعمرات ، أو البلاد الاخرى التى ترتبط ببريطانيا ، لا يمثلون دولتهم فقط . بل يمثلون بيوت المال الانكليزية بالدرجة الاولى ، كما يمثلون مصالح البعثات التبشيرية ، ومؤسسات العملاء والجواسيس ، بل كان المقيمون البريطانيون ـ لا يتورعون ـ عن أن يكونوا ـ بأنفسهم سماسرة .. أو صيارفة .. أو مرابين .

أصبحت الهند ـ بهذه الصفة التى شرحتها ـ مدار سياسة الانكليز الخارجية فى الشرق ، وأساس قوتهم البحرية . فكل بلد يطل على طريق الهند ، أو يتصل به من قريب أو بعيد ، وكل مضيق أو جزيرة أو امارة ، لها بعض الشأن فى حماية طريق الهند . كانوا يوجهون اليها أنظارهم ، ويستخدمون كل أساليب سياستهم ودهائهم ، حتى يحتلوها ، ويربطوا مصيرها بمصير الامبراطورية ، ويخضعوا سياستها الاقتصادية والعسكرية والخارجية لمصالح الامبراطورية أيضا .

وعلى هدى هذه السياسة ، التفت الانكليز ، الى منطقة الخليج العربى ، وسواحل عمان .. ثم التفتوا بعد ذلك ، الى العراق وبقية أجزاء بلاد العرب . وسيطروا على عدن ومضيق باب المندب ، ثم على مصر والسودان وقنال السويس ، وسواحل افريقيا الشرقية . فبسطوا نفوذهم فى هذه المنطقة الواسعة من العالم .. على أساس خدمة الامبراطورية ، وحماية طرقها . وربطوا السواحل العربية والافريقية بخيوط قوية مع الهند . ومن المناطق الساحلية شرعوا يمدون نفوذهم ، الى المناطق الداخلية المجاورة .. ويتدخلون فى شؤونها ، ويثيرون المنازعات والحروب بين حكامها . وخاضوا حروبا طاحنة ، محلية وعالمية ، لتأكيد هذه السياسة ، وتحقيق أهدافها الاقتصادية والعسكرية .

لقد وصل الانكليز فى المرحلة الاولى ، الى بلاط ايران وبلاط بغداد والقسطنطينية . وأخذوا يلعبون بسياسة هذه الدول . ففى أوائل القرن السابع عشر ، وصلوا الى بلاط الشاه الفارسى عباس الاول . وبدأ البحارة الانكليز ، يفدون تباعا الى موانىء الخليج ،

وينشئون المراكز التجارية فيه • وبعد أن أنشأوا مركزهم الاول في سرات ، انتقلوا الى جاسك سنة ١٦١٦ ، حيث كان قد اتسع نشاط شركة الهند الشرقية فيها • مستفيدين ، من الامتيازات التى منحها الشاه لهم ، فى مختلف أنحاء الدولة الايرانية •

وكان الانكليز ، قد انتبهوا – قبل ذلك – ، الى أهمية موقع وادي الرافدين ، ومدى أثره فى حماية طرق الشرق التجارية •• وخاصة طريق الفرات ، فألفوا شركة عرفت باسم : « الشركة التركية »تولت ارسال بعثة خاصة لدراسة طبيعة هذا الطريق ، عام ١٥٨٣ ، كان من أعضائها ، (ايلدرد ونيوبرى وفيتبج) ، فمـــرت البعثة في طرابلس الشـــام ، ثم بغداد ، ثم البصرة ، وأخـــيرا مرت بهرمز ، ووصلت الى جاوه

الا أن اهتمام الانكليز الكبير ، بهذه الطريق البرية ، خف طبعا ، بعد انتصارهم البحرى الساحق ، على الاسطول الاســباني ، فى معركة الارمادا الشهيرة ، فى عام (١٥٨٨) وتسلمهم زعامة البحر فوجهوا اهتمامهم الاول ، الى رأس الرجاء الصالح • ولم يعـــودوا يعيرون طريق الفرات البرى ، الا أهمية ثانوية ••

وظل موقفهم هذا ثابتا ، حتى برزت المطامع الاستعمارية الالمانية فى الاتجاه الى الشرق والى القسطنطينية وبغداد بصورة خاصـــة • وقامت الضجة حول امتياز سكة حديد برلين – بغداد – البصرة • وقد انتهت بفوز السياسة الانكليزية فى المنطقة ، وذلك نتيجة تسوية مؤقتة ، مع الاستعمار الالمانى •

طلائع المنافسة الاوربية :

كان اليعاربه فى ذلك الحين بالذات يشنون حربا وطنيه مقدسة لتصفية بقايا الاستعمار البرتغالى ، بنجاح متواصـــل • فتم لهم الاستيلاء على مراكز البرتغاليين ، فى سواحل بلاد العـــرب ، وفى السواحل الافريقية من جهة • وتمكنوا من ابعاد النفوذ الايـــرانى المتحالف مع البرتغاليين ، عن السواحل العربية من جهة ثانية •

ففى سنة (١٦١٦) أنزل العرب خســـائر فادحة بالبرتغاليين فى صحار على سواحل عمان • وفى سنة (١٦٢٠) تمكن الشعب العربى فى عمان ، – بقيادة اليعاربه – من دحر البرتغاليين فى ميناء

رأس الخيمة (جلفار) • فدق اليعاربة - بعملهم - المسمار الاول ، فى نعش الاستعمار البرتغالى •

وفى الوقت ذاته ، كان قد خف الى المنطقة ، أوربيون مغامرون آخرون ، يحملون جنسيات انكليزية وهولندية وفرنسية ، يهدفون للحصول على المكاسب التى حصل عليها البرتغاليون قبلهم •

وهكذا وقع البرتغاليون بين نارين :

نار العرب ، الذين كانوا يكافحون عن ديارهم وعن ثرواتهم وعن أسواقهم الطبيعية ، فى آسيا وأفريقيا •

ونار المنافسين الغربيين (انكليز وفرنسيين وهولنديين وكرد) على هذه المنافسة الضاربة ، وأصدر البرتغاليون أمرا ، بمنع الملاحة فى الخليج ، واحتلوا فى سنة ١٦١٢ ، بندر عباس ، على الشاطىء الايرانى •

لم يستفد البرتغاليون من تدابيرهم الواقية • فقد عاجلتهم ضربة العرب القاصمة • فوهنت قواهم ، وعجزوا عن المقاومة •• المجدية ••

كن الفرس حلفاء الايرانيين كما مر معنا • فقد اتفق الفريقان على تبادل المعونة فى البحرين والخليج العربى •• وفى أرض ايران ذاتها - ابان ثورة مكران - وكانت المصالح الاستعمارية ، والطمع فى الاسلاب والمكاسب ، هى التى تجمع بين الفريقين ، لا المبادىء ولا القيم •

ولذلك فان الفرس ، حالما أدركوا ، أن البرتغاليين مهزومون لا محالة ، هبوا للاشتراك ، فى نهب الاسلاب منهم ، منتهزين الفرصة السانحة ، فوضعوا أيديهم على بعض مراكزهم على الساحل الايرانى وحاصروا مدينة هرمز ، بصورة خاصة •

وكان الانجليز حديثى عهد بالمنطقة •• فقد قدموا اليها قبل عشر سنوات فقط • ولم يكن لهم فى المنطقة بعد ، المكانة التى تؤهلهم للاستيلاء على نصيب الاسد ، بعد كل خلاف - كعادتهم - ومع ذلك اغتنموا الفرصة أيضا ، وأدخلوا أنوفهم فى القضية ، وشاركوا فى تصفية الاستعمار البرتغالى ، فاشتبك أسطولهم بالاسطول البرتغالى حول (جاسك) •

وفى عام ١٦٢٢ ، دمر مركز البرتغاليين فى هرمز ، من قبل الانكليز أيضا .

ثم تعاون الاسطولان الانكليزى والهولندى ، على تدمير الاسطول البرتغالى فى عام ١٦٢٥ . فكان من نتيجة تلاحق المصائب والانكسارات ، فى قوى البرتغاليين ، ان انهارت مقاومتهم .. فانسحبوا من جميع قلاعهم فى السواحل غير العربية وتجمعوا على الساحل العربى ، محصنين مسقط وصحار ورأس الخيمة ، كوسيلة دفاعية أخيرة لهم فى المنطقة .

وهكذا استطاع البرتغاليون أن يبتعدوا عن المنافسين الغربيين ، وأن يوجهوا كل قواهم لدحر اليعاربة . كى ينطلقوا من النصر الذى أملوه الى انتصارات أخرى ، فى خارج المنطقة العربية .

لقد كانت خطة البرتغاليين فى الدفاع مثالية . وكان لو تم لهم النصر فيها ، لحافظوا على امبراطوريتهم قرنا آخر من الزمن .. ولكن رياح السياسة ، كانت ضدهم . فقد اختاروا لمعركتهم الاولى أقوى المناهضين لهم . أى اليعاربة .

كان اليعاربة فى عنفوان قوتهم واتحادهم وعزمهم على تطهير عمان .. لذلك لم يصمد البرتغاليون أمامهم . فانكسروا فى جميع المواقع الكبرى ، التى نشبت ، بينهم وبين عرب عمان .

ففى عام ١٦٤٣ أخرجهم اليعاربة من صحار .

وفى عام ١٦٤٨ وجه اليهم اليعاربة ضربة قاصمة بمحاصرة مسقط .

وفى عام ١٦٤٩ أعاد اليعاربة الكرة ، وأحكموا حصار المدينة ، حتى تم لهم النصر النهائى فيها ، فسقطت فى عام ١٦٥٠ ، وذلك على يدى الامام سلطان بن سيف . الذى لم يكتف بهذا النصر المحلى ، فتعقب البرتغاليين بعد ذلك ، الى سواحل أفريقيا الشرقية .

وهكذا انتهت قصة البرتغاليين .. وزالوا من أمام المنافسين الاوروبيين وخاصة من أمام الانجليز .

وهكذا أصبح الانجليز أدهى المنافسين . وأكثرهم قوة .. فأصبح أسطولهم الاسطول الغربى الاول فى المحيط الهندى .. الامر الذى ساعد على تكتل القوى المنافسة الاوربية الاخرى وتعاونها على مقاومة تغلغل النفوذ الانكليزى وتصفيته .

المنافسة الهولندية الفرنسية :

بعد أن زالت أخطار البرتغاليين، حاول الهولنديون والفرنسيون ان يحلوا محل البرتغاليين • وجربوا بناء مراكز تجارية وعسكرية خاصة على أنقاض المراكز البرتغالية ، تقوم باحتكار تجارة المنطقة ، كما كان يفعل البرتغاليون • وكما يفعل الانجليز عمليا •

كان الاستعمار الهولندي ، في فورته الاولى • وعنفوان قوته وثرائه • فاستطاع الهولنديون ان يحتكروا تجارة الخليج العربي ، وخاصة تجارة التوابل والبهارات ، لمدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن• بين عامي (١٦٠١ – ١٦٨٨) •

وكان من الممكن ، أن يطول عهد احتكارهم مدة أطول من ذلك • لا سيما بعد أن ظهر تفوقهم الفعلي على الانكليز ، في عدة مواقع • الا أن ظهور المنافسة الفرنسية في الميدان الشرقي ، بشكل بارز وخطير •• عطل خطط الهولنديين ، وأفسد حساباتهم كافة • فقد انهزموا – في المعارك – أمام الفرنسيين ، واستطاع الاسطول الفرنسي ان يدمر الاسطول الهولندي في عام ١٦٧٦ • فدفعتهم هذه الانكسارات المتواصلة ، للبحث عن حلفاء لهم ، فارتموا في أحضان الانكليز عام ١٦٨٨ ، لمواجهة الخطر الفرنسي • فكانت هذه السياسة وبالا على الهولنديين ، اذ ربطت سياستهم ، في ذيل السياسة الانكليزية ، وأخضعت مصالحهم للمصالح البريطانية ، فاصبحت هولندا بمثابة تابع للانكليز في المنطقة •

ومما عزز هذا الاتجاه •• وأكد نتائجه ، ان الفرنسيين لم يستطيعوا الصمود طويلا ، أمام المقاومة الانكليزية • فاضمحلت مقاماتهم بسرعة • وانتهت تقريبا ، في آخر القرن السابع عشر • وكانت انكسارات فرنسا أمام الانكليز في أوربا ، العامل الأول في حلول هذه النتائج الخطيرة •

وبزوال الفرنسيين ، من ميدان المنطقة ، واضمحلال خطرهم ، خلا الجو للانكليز • وأتيح لهم أن يقطفوا – دون غيرهم – ثمار النصر • ولم يعد لا لهولندا ولا لفرنسا ، قيمة تذكر في عملية المنافسة •

بعد ان تم الانكليز الفوز على منافسيهم الغربيين ، التفتوا الى سكان المنطقة ، لتصفية مقاومتهم الضاربة ، مستخدمين جميع

الوسائل وكل الامكانيات · من الدهاء الدبلوماسي الى الحرب والتدمير ·

فكان الانكليز ، اذا ما صادفوا مقاومة شديدة ، دمروها حالا ، وأفنوا مصادر قوتها ·· ثم توجهوا الى غيرها ·· وهكذا ·

عودة المنافسة الفرنسية :

ران على المطامع التوسعية فى فرنسا جمود طويل ، بسبب الانكسارات التى منيت بها ، فى النصف الاخير من القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الثامن عشر · فخفت المنافسة فى الشرق ، تبعا لذلك ·

ولكن أحلام الفتح والتوسع من جهة ، ونمو الطبقة المتوسطة ، وبروز مصالحها الاقتصادية ، التى تقوم على الاستعمار والاستغلال واحتكار ثروات البلدان المتأخرة ، من الجهة الاخرى ، دفعت بفرنسا ، لتحين الفرص الجديدة المناسبة ، كى تعود الى الميدان الاستعمارى ، فتحقق أحلامها وأحلام ومطامع الطبقة البورجوازية الجديدة النامية فيها ·

لقد أتاحت (الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩) ، للطبقة المتوسطة (البورجوازية) فى فرنسا ، ان تنطلق من قيودها · وان تبدأ فى بناء امبراطورية استعمارية ·

فالثورة الفرنسية ، قضت نهائيا ، على بقايا الاقطاع ،والعلاقات الاقطاعية ، فى فرنسا · واتاحت للبورجوازية ، الوصول الى الحكم · ولا سيما بعد ان زالت سيطرة العناصر المتطرفة فى الثورة وبرزت القوى المعتدلة ، الممثلة للبورجوازية ·

وقد استطاع نابليون الاول ــ بفتوحاته ، وما بعثه من أحلام المجد والتوسع ، وبايصاله الى الحكم ممثلى الطبقة المتوسطة ــ ان يمثل هو ــ بدوره ــ آمال هذه الطبقة ، وان يخدم أغراضها ، تحت شعار بعث (مجد فرنسا) · ولم يكن « المجد الفرنسى » المزعوم سوى حلم جديد فى بناء امبراطورية استعمارية تنافس الامبراطورية الانكليزية الاستعمارية وتسلبها بعض منهوباتها ·

لم يكن حلم نابليون ــ هذا ــ حلما جديدا ، بل كان تجسيدا عمليا ، للاحلام التى طالما راودت ، كبار تجار فرنسا ، وكبار صناعها ، منذ أوائل القرن الثامن عشر ·· أى منذ ان بدأت الثورة

الصناعية ، تنتصر في فرنسا ، وتفرض عليها البحث ، عن المواد الاولية . وعن الاسواق التى تصرف فيها بضائعها الفائضة ٠

كان من جملة أحلام الفرنسيين ، ان يوسعوا نفوذهم السياسى والاقتصادي ، وان يصلوا به الى بلاد الشرق ٠٠ وخاصة الى سواحل الخليج العربي وعمان ٠ ولكن المنافســـة الانكليزية كانت تقف فى وجوههم كل مرة ٠ وتبدد أحلامهم هباء ٠

كانت المنافسة ، كثيرا ما تسبب قيام المعارك بين الدولتين ، أو تهدد بوقوع حروب طاحنة في الوطن وفى المستعمرات ٠ ومع ان الغلبة كانت للنفوذ الانكليزى في النتيجة ٠ فان منافسة الفرنسيين للنفوذ الانكليزى ، كانت تبلغ أحيانا حد الخطر ٠

فقد توصل الفرنسيون الى بلاط مسقط ، بسهولة ، وفرضوا أطباءهم على السلاطين ٠ وحصلوا على أفضل أنواع الرعاية منهم ، بل حصلوا ـ منهم ـ على نوع من أنواع الاعتراف بالتبعية ٠ وصرح السلاطين وممثلوهم مرارا ، بوجود مصالح مشتركة للطرفين ٠٠ بل أعلنوا أكثر من مرة ان للفرنسيين ثمة حقوق فى أرض السلطنة ٠٠ وأفضلية على غيرهم من الاجانب ٠

ومن الامثلة على ذلك :

ان حاكم مسقط أرسل كتابا الى (روزيلى) الفرنسى الذى زار مسقط ، للقيام بعملية مسح للجغرافية المائية ، فى عام (١٧٨٥) يقول له فيه :

« ان بلادى هى بلادكم ، وصداقتنا باقية كما كانت عليه قبلا ، بل انها أقوى مما كانت عليه في أي وقت » ٠

وقال روزيلى ـ اياه ـ :

« ان أهل مسقط ـ فيما يبدو ـ يحبون الفرنسيين ، ويكرهون كبرياء الانكليز وتحكمهم » ٠

وفى الوقت ذاته ٠ كتب محـــافظ مسقط ، التـــابع لسلاطين البوسعيد ، الى المسيو (روسو) القنصل الفرنسى في بغداد ، يقول :

« لنا بالفرنسيين صلات أوثق من صلاتنا بأى دولة أخـــرى ، وبضائعنا وبضائعهم كلها واحدة ، وموانينا مشـــتركة ، والربح والخسارة مشتركة بيننا ، ولا حاجة الى الدخول فى أى تفصيلات ، لان قلوبنا قد تعاهدت على ذلك » ٠

وكتب حاكم مسقط ، الى القنصل الفرنسي ، في سنة (١٧٩٠) ، يقول :

« لست تجهل الاوامر التي نصدرها الى موظفينا ، في ميناء مسقط ، والطريقة التي يعاملون بها مواطنيكم ، الذين ينزلون في بلادنا ، فميزناهم على جميع الشعوب الاوربية الاخرى » .

ومما لا شك فيه ، ان هذه الامثلة ، كافية للدلالة على مدى تغلغل النفوذ الفرنسي في بلاط مسقط .

ان هذه الصلات ، لم تضعف الا بعد مقاومة جدية عنيفة ، من قبل الانكليز .. وقد استمرت فترة طويلة من الزمن .

فبعد وفاة (حمد بن سعيد) سنة (١٧٩٢) ، ووصول عمه سلطان بن أحمد الى الحكم .. احتفظ سلطان في الفترة الاولى من حكمه ، بهذه العلاقات الودية مع فرنسا .

يقول مايلز :

« على أثر اغتصاب السيد سلطان للحكم ، واصل علاقاته الودية مع فرنسا ، ويبدو انه ظل ، لبضع سنين ، يسترشد في الشئون السياسية ، بطبيبه الفرنسي .

ولم يكتف الفرنسيون ، بعلاقاتهم الطيبة بحكام مسقط . بل حاولوا أن يستخدموهم ، وسائط للاتصال ، بأمراء الهند الثائرين ، على النفوذ البريطاني .

فقد أعلن (مالارتيك) ، حاكم جزيرة موريشس الفرنسي ، في ابريل سنة (١٧٩٨) : عن عزمه على التعاون ، مع (تبوصاحب) ، سلطان ميسور في الهند . وكان من المتوقع ، ان يتم الاتصال بين الجانبين ، عن طريق عرب عمان .

كتب (سميث) ، وكيل شركة الهند في بوشهر ، يقول :

« ان مسقط ، ستصبح عما قريب، وكرا للجاسوسية الفرنسية، على الهند . لان خمسا أو ستا ، من السفن العربية ، تقوم بنقل التجارة ، بين جزيرة موريشس ، وبين مسقط ، وسواحل ملبار » .

وأخيرا ، استقرت الحملة الفرنسية في مصر ، عام ١٧٩٨ . وبرزت أخطار المنافسة الفرنسية ، بشكل واضح . وتجسدت هذه الاخطار ، بشكل عملي ، على مواصلات الامبراطورية ، وخاصة على البحر الاحمر والخليج العربي وسواحل عمان .

ومما لا شك فيه ، ان هدف الحملة ، كان قطع طريق الهند • ومن ثم الوصول الى الهند ، وتصفية النفوذ البريطاني فيها •

ولم يكد الامر ، يستقر بنابليون ، حتى بدأ نشاطه المعادي للانكليز ، في المنطقة • فأخذ يتصل بأمرائها وحكامها ، ويستميلهم الى جانبه ، ويؤلبهم على الانكليز •

كتب نابليون من القاهرة ، الى حاكم مسقط ، يقول :

« أكتب اليكم هذا الكتاب، لابلغكم ما لا شك في انكم قد علمتموه وهو وصول الجيش الفرنسي الى مصر • ولما كنتم دائما ، (أصدقاء) لنا • عليكم ان تقتنعوا ، برغبتي في حماية جميع سفن دولتكم • وعليكم ان تقوموا بارسالها الى السويس ، حيث تجد حماية لتجارتها •• »

ان نغمة حماية سفن مسقط ، ورعاية تجارتها والخوف عليها ، كانت الانشودة المحببة ، التي يرددها الطرفان المتنافسان (انجلترا وفرنسا) ، والتي ما كانت الا أسطورة هزلية ، يراد بها خداع مسقط ، وجرها الى الطوق الاستعماري • واخضاعها للنفوذ الاجنبي المباشر •

فمثلما كان نابليون، يعزف على هذا النغم ، ويمني حكام مسقط، بحماية سفنهم • كان الانكليز يرددون المعزوفة ذاتها •

كتب مالكولم عن الفرنسيين :

« ••• تلك الامة الخارجة على القانون ، قد تحدت جميع المعاهدات، واستولت على مصر ••• » ثم يقول : « فماذا كان يصبح اذا ،مصير تجارة مسقط المشهورة ، لو ان مرافيء شبه جزيرة الهند ، أقفلت أمام سفن مسقط التجارية ، بأمر القوة المسيطرة ••

« لا يمكن الاجابة على هذا السؤال ، الا بالاعتراف بالحقيقة ، وهي ان رخاء مسقط ، يعتمد على رضا الانجليز » •

ويبدو ان حكام مسقط، اقتنعوا بهذه الحجة •• وأخذوا ينصتون الى نصائح الانكليز •• وينزلون عند رغباتهم •• فقد عقدوا معهم ، معاهدة سنعود الى شرحها • كانت معظم بنودها تدور ، حول مقاومة النفوذ الفرنسي في مسقط ، واستئصال شأفته ، والتعهد بعدم السماح للفرنسيين ، باقامة وكالة لهم في العاصمة ، أو في

توابعها · مع الوعد ، بطرد جميع الرعايا الفرنسيين ، من خدمة السلطان ·

لم يكتف الانكليز ، بمقاومة الفرنسيين في بلاط مسقط ، ولدى سلاطينها ، بل أثاروا مخاوف الفرس ، من النفوذ الفرنسي · وأقنعوا الشاه ، بارسال ۲۰۰۰ جندي ، لحراسة سواحل ايران على الخليج ·

ولكن تحطيم الاسطول الفرنسي ، في معركة (أبي قير) حسم المسألة ·· وبدد أحـــلام نابليون وفرنســـا ـ آنئذ ـ ، فهبطت المنافسة ، من مستوى المعارك والحروب ، الى مستوى المماحكات الدبلوماسية ·· وتضاءل الخطر الفرنسي ، ولم يعد جديا كما كان ·

المطامع الايرانية ونتائجها :

ان قصة المنافسة الاستعمارية على بلاد العرب ، لم تكن ذات جانب واحد ، أو جوانب قليلة محدودة ·· بل كانت جوانبهـــا كثيرة ومتنوعة ، وقد ترتب عليها ، نتائج محليـــة وعالمية ، ذات خطورة وأثر · يستغرق شرحها آلاف الصفحات السود الملطخة بالدم ، بالنسبة لتاريخ الاستعمار ·· والمليئة بالكفاح الانساني البطولي ، ضد الظلم والطمع والنهب ، بالنسبة للشعب العربي في المنطقة ·

لقد ساهم الشعب العربي ـ طوال هذه الفترة ـ مساهمة ايجابية انسانية ، ضد كل أنواع الطغيان الغربية والمحلية · أي التي كان يمثلها الاستعمار الانكليزي والفرنسي والهولندي من جهة ، وضد المطامع التي كان يحملها الفرس والاتراك العثمانيون ، من الجهـة الثانية ·

كان دور العرب ، دور الكفاح الوطني الايجابي ، لحماية سـلامة منطقتهم ، ولتثبيت استقلالها ، ولطرد العدو من النقاط التي تركز فيها · ولحماية اقتصادياتها من النهب ·

في حين كانت ، سياسة الجهات الاخرى ·· وخصوصـــة الفرس والاتراك ·· سلبية يقودها الطمع والطغيان والظلم ، وتمليها روح العدوان والنهب ·

واذا كان قد كتب النصر فيها للانكليز ، على جميع القوى الغريبة ·· فان العرب لم يستسلموا قط ·· وما معارك عمان الحالية ، الا الصفحات الاخيرة لتلك المآسي ·· والتي لا بد ان تنتهي بانتصار الشعب العربي ، وتصفيه الاستعمار من المنطقة نهائيا ·

ولا بد هنا من القول : بأن الدور الذى لعبه الفرس ، كان أسوأ الادوار التى لعبها حكام منطقة ما ، فى سواحل الخليج العربى •

لقد تعاون الفرس مع جميع الجهات الطامعة ، ضدمصلحة المنطقة• لعلهم يصلون ــ من وراء ذلك ــ الى الاستيلاء عليها ، أو اقتسامها مع العدو الخارجى • فلم تفدهم السياسة العدوانية فى شىء ، بل جرت الويل عليهم ، وعلى جيرانهم •

كان الايرانيون ــ فى الحقيقة ــ أول من فتح أبواب المنطقة للنفوذ الاجنبى ، وخاصة للنفوذ الانكليزى • ظنا منهم ، انهم يستطيعون استخدام الاسطول الانكليزى ، فى عملية اخضاع الشعب العربى ، الذى لم تتوقف مقاومته قط • آملين ، ان يخرج لهم الانجليز ، الكستناء من النار • فيربحون القضية ، دون ان يبذلوا جهدا ما •

وافق الانكليز على هذه الصفقة بسرور •• وارتاحوا للحلف غير المقدس ، الذى أقاموه مع شاه ايران •• لا حبا فى ايران ••ولا خدمة لها • فالاستعمار لا يخدم الا نفسه •• ولا يعمل الا وفق مصالحه القريبة أو المصالح المرتقبة •

وهكذا لم يجن الايرانيون ، من سياستهم ، ومن المعارك الطاحنة التى خاضوها ، فى سواحل عمان •• وفى البحرين •• وفى شط العرب وعربستان ، غير الخذلان والفشل •

ففى عام ١٦١٥ ، حصلت شركة الهند الشرقية ، على فرمان من الشاه عباس الاول ، يامر فيه جميع موظفى الموانىء الفارسية ، بمساعدة التجار الانكليز ــ ثم أصدر الشاه ، فى سنة (١٦١٧) ، أمرا آخر ، يمنح للانكليز فيه ، حق احتكار تجارة الحرير •

ان أوامر الشاه عبـــــاس الاول ، وفرماناته ، هى التى مكنت الانجليز ــ لاول مرة ــ من غزو السواحل • فى زمن كانت المنافسة الاستعمارية فيه ، على أشدها • وفى زمن كان الانكليز ــ أنفسهم ــ فيه • وافدين محدثين ، لا حول لهم ولا قوة •

ان النفوذ الانكليزى الاول ، كان مقتصرا على السواحل الايرانية• ولكن بما ان سكان السواحل الايرانية ، كانوا عربا ، يرتبطون بالسواحل العربية المقابلة • بروابط كثيرة ومتينة • فقد وجـــد الانكليز صعوبة كبيرة ، فى اخضاعهم •• رغم فرمانات الشـــاه ، ورغم أوامره •• وجيوشه •

وظلت السواحل العربية ، بعيدة عن هذا النفوذ ، زمنا أطول

نسبيا . والسبب في ذلك ، يعود الى مقاومة أئمة عمـــان . والى مقاومة القبائل العربية ، المعروفة بقوة الشكيمة . والتي كانت ــ الى هذا وذاك ــ تملك عددا من الاساطيل التجارية ، والسفن الحربية ، القادرة على عرقلة ، مواصلات الانكليز ، وتهديد طرقهم البحرية .

ولكن ، ما ان طرد البرتغاليون ــ نهائيا ــ من السواحل العربية .. وقامت امبراطورية عمان البحرية القوية ، في القرن السابع عشر ، حتى أخــذ الانكليز ، ينظرون اليهـــا بعيون ملؤها الشره والحقد . ولكنهم بدأوا ــ كعادتهم ــ يضعون الخطط البطيئـــــة ، والمضمونة النتائج ، لتحطيمها . وكان أبرز ما يميز هذه الخطط المدروسة ، الحذر والتاني ، واغتنام الفرص المناسبة .

ان هذه الاسباب ، هي التي تفسر بطء امتداد النفوذ الانكليزي وتعثره ، في المرحلة الاولى . فقد بدأ نفوذهم يتسرب بصورة بطيئة وئيدة .. بل ومتعثرة أحيانا . حتى ان شركة الهند الشرقية ، أبت التلاحم المباشر ، مع القبائل العربية ، مدة طويلة ، ولا أدل على ذلك، من انها رفضت طلب الشاه عباس ، حينما رغب في مساعدتها له ، عند غزوه لسواحل عمان . متجنبة الاشتباك ، بالقبائل العربية .

ولم تعدل شركة الهند سياستها هذه .. وتقبل بسلوك سياسة الاصطدام والتدخل ، في شئون المنطقة ، الا بعد قرن من الزمن تقريبا .

كان الانكليز يهدفون ، من سلوكهم الحــذر المتأني ، الى تحقيق غرضين :

أولا : عدم اثارة القبائل العربيـــة ضدهم . في مرحـــلة ، لم يكونوا فيها قد تثبتوا لمركزهم ، أو أمنوا على مواطىء أقدامهم .

ثانيا : لرغبتهم ، في جنى الارباح كلها ، دون مشاركة أحد لهم فيها . وهـــذا ما دفعهم ، الى عدم تشجيع الشـــاه عباس ، على الاسترسال في مطامعه التوسعية .

كانت بريطانيا ــ والحق يقال ــ تعمل لصالحها هي ، لا لصالحه . وتحتفظ بالسواحل العربية لنفسها ، لا لتقدمها هدية هينة ،للشاه عباس أو لغيرة .

وهكذا تبددت مطامع الفرس هباء ، ولم يجنوا من تعاونهم مع الانكلـــيز ، وفتح أبواب ايران لهم ، غير قبض الريح ، والوبال والشؤم .

الفصل الحادى عشر

أثر التدخل الاجنبى فى انقسام عمان

غمامة تظلل عمان :

فى أواخر القرن السابع عشر ، بدأت بوادر فتنـــة عمياء ، فى صفوف الشعب العربى فى عمان ٠

أثيرت النزاعات القبلية القديمة من قبرها ٠ ونفض عنهـا غبار الزمن ٠ واشتدت العصبية الجاهلية بين قبائل (اليمن وقبائل عدنان) بعد أن أخذ كل فريق منهما اسما جديدا ٠ فأصبح يطلق على عرب الجنوب (الهناوية) وعلى عرب الشمال (الغافرية) ٠

ولم تقف العصبية عند حد الجدل والخلافات البسيطة ، بل تعدت ذلك الى الفتن والاضطرابات والحروب الداخلية ٠

ففى القسم الاول من القرن الثامن عشر ، شهدت عمان معـارك قبلية ، ونزاعات مؤسفة بين أبناء الشـعب الواحد ، أوهنت قوى الامامة ، وساعدت على تفتيت قوى الشعب ، فتفتحت الثغـــرات الواسعة ، أما العدو الاجنبى المتربص ، على حدود الوطن ٠

وكانت النتيجة الاولى لهذه الفتن ، أن تفككت الاسرة العربيـة الحاكمة ، وتقلص نفوذها ، وبدأت امبراطوريتها تذوى وتتجزأ ٠

وبلغت الفوضى حدا من الخطر ، دفع بأحد حكام عمان ، وهو سيف ابن سلطان ، للاستعانة بالفرس على بنى قومه ، فانتهز الايرانيون الفرصة وسارعوا الى نجدة سيف بجيش كبير ، تقدم الى منطقـة الظاهرة من عمان ٠٠ وسار برفقة الخائن وجماعته لمحـــاربة الامام الشرعى المؤيد من الشعب (بلعرب) فغلبوه واحتلوا معظم مدن عمان وخاصة العاصمة ٠ وأفحشوا فى القتل والتمثيل ، ولم يرحموا طفلا أو امرأة أو شيخا عاجزا مما أثار حفيظة الشعب العربى وغضبه ٠

وقد بلغت مظالم الفرس ، حدا من القسوة دفعت بسيف للجزع فاضطر للانزواء والتراجع ، وتفضيل خصومه من العرب على أصدقائه الفرس الذين يحملون عداوة وحقدا على شعبه ٠

انقشاع الغمة عن عمان :

ان عمق المأساة التي ألمت بعمان ·· وفداحة الخسائر ·· والنتائج التي تخيل الشعب حدوثها لو استمرت المحنة ، دفعت بكل فرد ، للعودة الى نفسه ، ومحاسبتها على سلوكها · فتناسى الناس خلافاتهم وتخلوا عن حزازاتهم وانقساماتهم ، وصهرتهم التجربة فجردتهم من دوافع الانانية والتعصب الذميم · وتآخت عمان ·· وتوحدت أهدافها ، وذابت اتجاهاتها الخاصة وأجمعت على بذل كل مرتخص وغال في سبيل طرد الفرس من ربوع الوطن ·

حتى ان زعماء عمان ورجال الحل والعقد فيها ، تنازلوا عن بعض القيم التي ما كانوا ليتنازلوا عنها ، لولا ضغط الظروف ، وقبلوا ببعض الشر ، تفاديا للشر الاكبر · فقرروا الطلب من الامام الشرعي أن يضحي ، وأن يتنازل عن الامامة ، رغم وضوح حقه فيها ، ليتولاها سيف بن سلطان ، تدعيما للوحدة الوطنية ولقطع الطريق على الغزو الفارسي ، ولتوحيد جميع قوى المجتمع لطرده من الوطن · فقبل الامام الشرعي الذي يتمتع بالوعي الكافي والعقل الراجح ، وتنازل عن منصب الامامة بنفس رضية ، وأعيد تنصيب سيف فعلا ·

ولكن سيف لم يكن من مستوى هذا المنصب ، ولا ممن يقدرون أمانة الشعب ، فلم يصدق العهد الذي قطعه على نفسه ، ولم يبذل ما يستطيعه لرد الفرس وطردهم من البلاد على خير وجه ، رغم أنه كان زعيما مدنيا ، لا دينيا · وكان يغلب عليه الطابع العسكري ·

لقد أحسن أحمد بن سعيد تدبير شؤون الدولة ، وسن القوانين التجارية لها · وقوى الاسطول ، وأنشأ الجيش البري وأبقاه تحت اشرافه المباشر · وقضى على الفتن الداخلية نهائيا ، وأزال آثار الفرقة والتعصب · وحمى الامبراطورية العمانية ــ فترة أخرى ــ من التفكك وتتبع أعداء عمان في البحار ، وأراح الناس واستراح ·

وعندما احتل الفرس البصرة في عام (١٧٥٦م ١١٧٠هـ) تتبع آثارهم الى هناك ، ولحق بهم الى البصرة بأسطول عماني قوى ، يحمل عشرة الاف مقاتل · فهزمهم وطرد فلولهم من البصرة ·

وكان من جملة أسطوله ، طراد أسمه « الرحماني » حطم السلسلة الحديدية التي نصبها الايرانيون في شط العرب ، ووصلوا بها الضفتين لمنع أسطول عمان من التغلغل في شط العرب ، والوصول الى البصرة ·

وحينما أوقف لصوص البحر ، في سواحل الملبار في الهنــد ، المؤونة عن عمان ، وحالوا دون وصولها ، أرسل أحمد بن ســعيد طراده هذا الى جنوب الهند (مانغالور) للسؤال عن السبب في تأخير المؤونة • فاستقبل (بتوصاحب) مندوب امام عمان بكل حفاوة ، وأخبره أن السبب هم لصوص البحر على ساحل الملبار • فقصدهم الطراد الى ديارهم ، في تلك السواحل ، فقصف معقلهم وقتل زعيمهم ثم عاد •

خيانة سلاطين البوسعيد :
وعودة النفوذ الانكليزى الى مسقط :

مات أحمد بن سعيد بعد أن حكم ٣٤ عاما •

وأعقبه ابنه سعيد بن احمد ، الذى قيل انه انتخب اماما بعد أبيه وقيل أنه لم ينتخب ، والمؤرخ السالمي يخامره الشك في انتخابه • وسعيد ــ كل على حال ــ لم يكن كفؤا للمنصب ، ولم يكن خلفاؤه من البوسعيد أفضل منه • ومن المؤكد أنهم لم يحصلوا على لقب الامامة بعده • وقد تولوا حكم مسقط وتوابعها بالارث ، فنقضوا ــ بذلك ــ شرطا أساسيا من شروط الامامة ، ألا وهو الانتخاب •

بل قيل انه كان على وفاق معهم ، في الخفاء •

وقيض الله للشعب العربي في عمان ، فرصة الخلاص من هــذه المحنة •

فظهر من صفوف الشعب ، بطل وطني عصامي ، هو احمد بن سعيد ، الذى مر ذكره •• فقاد الشعب الى النصر •• وهداه الى طريق الخلاص •

كانت مواهب أحمد بن سعيد ، قد اكتشفت قبل الآن ••فعرف بالشجاعة والحزم واصالة الرأى • فقادته هــذه المواهب النادرة ، والصفات الفريدة الى منصب ولاية صحار ، من قبل سيف • فساسها سياسة حكيمة عادلة أكسبته حب واحترام شعبها ، فمكنه ذلك من تطهيرها من نفوذ العدو ، حليف ولى نعمته سيف •

لم يتعصب ضد العرب ، حتى من كان منهم من أعداء سيف ومناوئيه بل وجه همه لمقاومة النفوذ الفارسي • وأخلص النية في محاربته • ولم يكتف بتطهير صحار منهم ، بل لاحقهم الى المعاقل الاخرى في عمان •• وكان ساحل عمان كله في أيديهم •

لقد عبر احمد بن سعيد عن أماني الشعب العربي العماني ٠٠ وجسد أحلامه في أعمال بطولية خالدة ، واستخدم الذكاء والحيلة الى جانب السيف ٠٠ وتسلم الحصون منهم بحرب وبدون حرب ، فالتف الشعب العربي في عمان حوله ٠٠ وأولاه ثقته المطلقة ٠ وأمن في ظل رايته المظفرة على أمانيه فلم يحاسبه ٠

لقد استخدم حمد بن سعيد هذه الثقة استخداما جيدا ، ولم يخنها قط ٠٠ فلم يغمد السيف ألا بعد أن طهر البلاد من الفتن ، وقتل من الفرس من قتل ، وطارد الباقين ، حتى انتقلوا الى الشاطىء الايراني ٠٠

وفي هذه الغمرة المفرحة من الانتصارات ، توفى الامام الشرعي ، متاثرا من جراحه التي أصابته في معاركه مع الفرس ٠٠ وضاقت السبل في وجه الامام الزائف « سيف » فمات بعد أيام كمدا ٠

وبقي احمد بن سعيد ٠٠ الزعيم الوطني الكفء ٠٠ والقائدالباسل الذي ملأ الفراغ ، وعبر عن مطامع شعبه ، في تلك المرحلة ٠

واجتمع الرؤساء ، اعيان البلاد ورجال الدين في مدينة الرستاق ، فبايعوه بالامامة ، مجمعين على ذلك متسابقين ، في سنة (١١٥٤ هـ ١٧٤١ م) ، فقام بواجبات الامامة ٠

ونظرا لضعف سعيد بن أحمد فقد ترك الحكم لولده (حمد) ٠٠ فأخذ حمد يتصرف في شؤون البلاد على هواه حتى توفي عام ١٧٩٢ ٠

وفي عهد حمد تم انتقال سلاطين البوسعيد من العاصمة الرستاق في الداخل الى مدينة مسقط على الساحل ٠ وهكذا انفصل سلاطين البوسعيد ـ باختيارهم ـ عن الشعب ، وربطوا مصيرهم بمصير الامبراطورية العمانية فيما وراء البحار ٠٠ وبأحداث الساحل ، حيث كان يتطاحن الاجانب ٠٠ وحيث كانت المنافسة الاستعمارية تقوم على قدم وساق ٠٠

قال لوريمر ، يصف آثار هذه الخطوة :

« لقد أخرجت حكام عمان عن موقف كانوا يستطيعون فيه أن يحتفظوا بمنزلتهم ، بوسائل القدرة العسكرية والسياسية ، ووضعت في متناولهم دخلا مضمونا سهلا من الرسوم الجمركية ، ومكنتهم من أن يحتفظوا بسلطة شكلية ، بالرشوة وحدها ٠ وعرضتهم ـ بعد ذلك ـ لتاثير حضارة أجنبية أبعدتهم عن قبائلهم في الداخل ، وقللت

من شعبيتهم بين رعاياهم • ولو بقيت العاصمة فى الرستاق ، لكان من الممكن أن تتمتع عمان ، فى القرن التالى بمزايا حكومة أكثر استقامة ونشاطا ، وكان يمكن أن يكون الفساد الخلقى للاسرة الحاكمة أقل سرعة » •

ومن المؤسف أن يكون شعور هؤلاء الحكام لا يختلف عن شعور الاجانب فيما يتعلق بالموضوع • فقد كانوا يعرفون هذه النتائج ويعدون أنفسهم للاستفادة منها •

لقد كتب أحد أبناء الامام احمد بن سعيد الى البحار الفرنسى دستان • وكان دستان يتجول فى الخليج العربى • فجاء فى كتابه :

« اننى صديق للفرنسيين •• اننى أعد نفسى ابنا للفرنسيين •• اننى أعرض عليك مينائى وكل ما أملك من مال وماشية •• »

كان من الممكن أن يسكت الاهالى عن حكم سلاطين البوسعيد ، احتراما لماضى أبيهم احمد بن سعيد وسابقته الطيبة • الا أن حكام مسقط ــ هؤلاء ــ انغمسوا فى حمأة الفساد وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية • واهتموا بمضاعفة ثرواتهم على حساب الشعب • فأحدثوا البدع واحتكروا السلع ، مما سبب نشوب الفتن الداخلية وكثرة الطامعين فى الحكم • فمن الناس من بايع سعيد بن احمد • ومنهم من بايع قيسا بن احمد الذى كان يحكم صحار • وآخرون فضلوا أخاه هلالا • وغيرهم التفوا حول حمد بن سعيد بدلا عن أبيه • فضعفت هيبة الحكم ، وهانت الدولة فى عيون الناس ، وكثرت الانتفاضات عليها ، وصار بعض الحكام يقاتل البعض الآخر • وبدلا من أن يرجع حكام البوسعيد الى قواعد العدالة ، ويحموا مصالح الشعب ويحتموا بحماه ، التفتوا الى الاجنبى •• يستمدون منه القوة والعون ، وصرفوا همهم الى استغلال خيرات الامبراطورية لسد حاجاتهم المادية ، وأهملوا عمان ••

وهكذا لم يقدر حكام مسقط الخطر الحقيقى الكامن وراء تكالب الاوروبيين للوصول الى عمان •• وبسط نفوذهم السياسى والعسكرى عن هذه الطريق ــ على كل بلاد العرب •• مفضلين أن يعيشوا فى حماية الاجانب على أن يعيشوا فى حماية الشعب ••

وبسبب أن حكمهم كان مكروها من الشعب ومحتقرا •• فان نفوذهم لم يتعد بعض السواحل والسهول المرتبطة بها كالباطنة •

وعلى البلاد التابعة لحكومة مسقط فيما وراء البحار ·

أما عمان الداخلية ، والسواحل الشمالية الغربية ومنطقة الظاهرة وحتى بعض مناطق السواحل الشرقية والجنوبية ، فكانت خارجة عن سلطانهم ·

وكنتيجة لازدياد ارتباط حكام مسقط بالاجانب ، أخذ أئمة عمان ينكمشون في الداخل · خوفا من امتداد الشر الاستعماري الى بلادهم

ولا ينكر أحد أن سلاطين البوسعيد ، استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات الخارجية لمسقط · فقد احتل سلطان بن احمد مثلا بعض الاجزاء من سواحل مكران : جوادر ، وشهبار ، وقشم ، وهرمز ·· فضمها الى أملاك عمان الامبراطورية · ثم أتبعها بـ (بندر عباس) وملحقاتها · ووطد أقدامه في زنجبار وممباسا وسواحل أفريقيا الشرقية ·

ولكنهم اعترفوا — في مقابل ذلك — بتبعيتهم المطلقة للاجنبي ، بصورة تدريجية · كما أخذوا يفقدون ذات الاملاك التي كسبوها ، مع غيرها من الاملاك السابقة بعد فترة قصيرة من الزمن · ولم يبق في أيديهم سوى زنجبار التي يحكمها فرع آخر من عائلة البوسعيد تحت اشراف انكلترا وبموافقتها ·

بعد موت حمد بن سعيد بقليل اغتصب عمه سلطان بن احمد السلطنة وظل يحكم مسقط حتى عام ١٨٠٤ حيث قتل ·

وحاول بدر بن سيف من البوسعيد الاستئثار بالحكم في مسقط ، ولكنه أغتيل بعد سنتين من قبل سعيد بن سلطان ·

وفي عام ١٨٠٦ تولى سعيد بن سلطان الحكم في مسقط · فكان وجها جديدا في العائلة ·· دام حكمه أكثر من خمسين عاما ·· واعتمد خلال هذه الفترة الطويلة اعتمادا كليا على مساعدة الانكليز · ووقف الى جانبهم في كل مشكلة تعرضوا لها · ووقفوا الى جانبه في كل مشكلة تعرض لها أيضا ··

وبعد وفاته انقسمت حكومة مسقط الى حكومتين احداهما في مسقط تولاها ابنه تويني والثانية في زنجبار تولاها ابنه الآخر ماجد

وفي عهد تويني وماجد ·· كان انحدار مسقط قد بلغ حدا لايمكن تلافيه ·· وكان الجور قد استفحل · فانفصلت معظم عمان ·· وقامت فيها سلطات محلية شبه مستقلة تمهيدا لقيام أمامة عزان بن قيس ·

الفصل الثاني عشر

أول معاهدة بين بريطانيا وبلاد العرب

معاهدة مسقط عام ١٧٩٨ :

انتصر الانكليز في عام ١٧٩٨ انتصارا حاسما في مجال تثبيت نفوذهم في المنطقة العربية ٠ وتحويل علاقاتهم الى نصوص خطية ٠ واحلال نفوذهم محل النفوذ الفرنسي ٠ بالاتفاق المباشر مع حاكم مسقط ٠ ووضع أول معاهدة معه - وهي أول معاهدة أيضا بين بريطانيا وبين حاكم عربي ٠

عندما علم الانكليز في بومباي ، ان الحملة الفرنسية قد استقرت في مصر عام ١٧٩٨ - وان نابليون قد اتصل بأشراف مكة وحاكم مسقط ٠ وأرسل كتابا بواسطة مسقط الى حاكم ميسور الثائر ٠ اضطربوا وخافوا نتائج سكوتهم ٠ فارسلوا بعثة الى جدة ، لتكون حلقة اتصال بين الانكليز وبين شريف مكة ٠ كما أوفدوا أحد موظفي شركة الهند الشرقية وهو فارسي يدعى (مهدى على خان) الى مسقط للتفاوض مع السلطان وقطع الطريق على الفرنسيين ٠ واقامة وكالة تجارية انكليزية في مسقط ، واحلال الاطباء الانكليز محل الاطباء الفرنسيين الذين كانوا يعملون في خدمة سلطان مسقط منذ زمن ٠

وقد وصلت بعثة مهدى على خان الى مسقط في ٢ اكتوبر ١٧٩٨ ٠ وبعد عشرة أيام من المفاوضات توصل الطرفان الى اتفاق وعقدت معاهدة بين بريطانيا ومسقط ٠ كان الاحتياط فيها ضد فرنسا واضحا ومقصودا :

حوت المعاهدة ثلاث نواح مهمة هي :

أولا : ابعاد النفوذ الفرنسي ومحاربته ٠

ثانيا : ابعاد حكام مسقط عن شعبهم وربطهم ببريطانيا مباشرة ٠

ثالثا : توطيد النفوذ الانكليزي بصورة فعلية وثابتة ٠ بفرض الموظفين على السلطان وافساح المجال أمامهم للتدخل في شئون السلطنة ٠ وباقامة وكالة دائمة للانكليز تكون مرجع هذا النفوذ

ولكن خطر اشتداد النفوذ الفرنسي استأثر بمعظم مواد المعاهدة فوضعت النصوص الملزمة للسلطان بمقاومته حتى ان هذه النصوص غطت على النواحي الاخرى ، حتى يبدو لمن يدرس نصوص الاتفاقية ان الانكليز ، كانوا يهتمون بمحاربة النفوذ الفرنسي أكثر من اهتمامهم بانشاء صداقة مع سلطان بن أحمد ـ حاكم مسقط ـ

لقد خصصت المواد (٣ ـ ٥) من أصل سبعة بنود ، لتعيين الاجراءات التي يجب على حكام مسقط ان يتخذوها ضد فرنسا • ومن أهم هذه الاجراءات ، التعهد بعدم السماح للفرنسيين باقامة وكالة لهم في مسقط وتوابعها • مع الوعد بطرد جميع الرعايا الفرنسيين من خدمة السلطان •

كان الانكليز يدركون المغزى الحقيقي للاتفاقية • فاستغادوا منها الى أقصى الحدود • وعملوا ـ جاهدين ـ على توثيقعلاقاتهم بالسلاطين ، ووسعوا ـ في الوقت ذاته ـ شقة الخلاف بينهم وبين شعب عمان • وفصلوهم ـ نهائيا ـ عن عمان الداخلية • وباعدوا بينهم وبين قبائلها القريبة المستقلة • وربطوا مصلحة السلاطين ربطا مباشرا ، ولكن بصورة تدريجية ، بحكومة الهند • وقيدوا تصرفاتهم الخاصة والعامة برضاها •

وقد أشار مالكولم الى هذه الحقيقة كما سبق وذكرنا ذلك في الفصل السابق •

وقال هوغارث :

« ان هذه الاتفاقية قد الزمت بريطانيا العظمى ـ منذ ذلك الوقت ـ بأن تؤيد حكام مسقط ، ضد شعب عمان » •

تتضمن المعاهدة سبعة بنود • تعهد فيها السلطان ـ بالاضافة الى ما تقدم ـ ان يغلق موانيه في وجه الفرنسيين مدة الحرب بين الطرفين • وان يستعين بمشورة موظف انكليزي يقيم في مسقط •

ولما حاول السلطان التلكؤ في السماح باقامة وكالة انكليزية في مسقط • هدده الانكليز بغلق موانىء الهند من سورات الى كلكته ، في وجه سفن مسقط ومقاومة تجارتها • فرضخ لارادتهم ، وأجابهم الى مطلبهم •

وفي عام (١٨٠٠ م ـ ١٢١٤ هـ) وبينما كان الكابتن جون مالكولم المذكور آنفا ، في طريقه الى بلاد فارس ، اجتمع بحاكم مسقط واقنعه

بتوقيع اتفاق جديد يسمح بتعيين وكيل بريطاني في مسقط • وكان مالكولم متهيئا للمفاجآت والظروف • فقد استقدم معه مقيما يفي بهذا الغرض عند الحاجة • هو الطبيب الجراح (بوجل) • فأبقاه في مسقط ليقوم ـ لأول مرة في التاريخ العربي الحديث ـ بوظيفة المقيم البريطاني •

وبعد ان انتهى صلح اميان بين فرنسا وانكلترا وعادت الحرب بين الدولتين في ١٨٠٣ ، اضطر حكام مسقط لتعيين موقفهم النهائي من المنافسة الانكليزية الفرنسية • ووقفوا الى جانب الانكليز •

لذلك نجد حاكم مسقط يقف موقفا صارما من مبعوث نابليون • فعندما وصل مبعوث نابليون الخاص (كافنياك) الى مسقط في شهر اكتوبر من عام ١٨٠٣ أبى الحاكم استقباله • وأرسل له مندوبا يبلغه ذلك •

قال المندوب له :

« كان الحاكم يتمنى ان تصل في فترة سلام ، حتى يستقبلك السلطان بشوق • غير ان الانكليز ولا شك ، يغضبون على سيدي ، لو سمح لك ان تجيء بعد اعلان الحرب بينكم • لدينا عشرون سفينة كبيرة في موانيهم في البنغال أو على ساحل ماليبار ، وليس ثمة ريب في انه سيتم الاستيلاء عليها حالما يبلغون التعليمات » •

وقد يبدو للمرء بعد مطالعة هذا النص ان حكام مسقط قد اختطوا لأنفسهم خطة سياسة نهائية • مدفوعين بمصالحهم الاقتصادية • فوقفوا الى جانب الانكليز • ولكن الحقيقة كانت بخلاف ذلك •

ان روح الذلة والخنوع كانت قد طبعت حكم هؤلاء السلاطين بطابعها المميز • فلم يترددوا عن اظهار الطاعة المهينة لأكثر من سيد ، في آن واحد •

فقد كتب سعيد بن سلطان سنة ١٨٠٦ ، وذلك حينما اعتلى العرش •• الى ديكان القائد العام للممتلكات الفرنسية في المحيط الهندي يقول له فيه :

« ••• موكد ان سعادتكم لا تجهلون سلاطة الامة الانكليزية وكبرياءها وكذلك قوتها في الهند » •• ثم طلب منه في آخر الكتاب ان يعتبر « مسقط تابعة لفرنسا ، وان تعتمد على استعدادي لاطاعة أي أوامر قد تشرفني بها فرنسا » •

وطلب سعيد أيضا ـ في ذات الوقت تقريبا ـ من الحاكم البريطاني في بومباي : « ان يصون معاهدات الصداقة والتحالف القديمة • وطلب صراحة الحماية البريطانية ضد الفرنسيين » •

وهكذا كان حكم سعيد ـ على طوله ـ عهد خيانة وذل مهينين ، واستسلام مطلق •• وربط بلاده بالمعاهدات والقيود والتعهدات •

وكانت حجته : انه يحمي ـ بهذه السياسة ـ نفسه من هجمات السعوديين •• والحقيقة التي لا مراء فيها انه اتخذ هذه الحجة وسيلة لكسب تأييد الاجنبي وجر المغانم الى جيبه الخاص • وكسر شوكة خصومه • واذلال الشعب العربي في عمان • فازدادت منهوباته •• وازداد معها النفوذ الاجنبي وقيوده •

ولا أدل على ذلك من انه لم يخفف من تبعيته للاجنبي وانصياعه له قيد شعرة ، حين سقط حكم السعوديين بعد استيلاء محمد على باشا على جزيرة العرب وتهديم عاصمة الوهابين (الدرعية) •

أسطورة محاربة القرصنة والرقيق :

منذ سنة ١٧٨٤ انتقلت سياسة الهند وادارة شئونه من أيدي شركة الهند الشرقية الى أيدي موظفي الحكومة البريطانية • فقد عينت الحكومة البريطانية حاكما عاما للهند ، يتولى ـ باسمها ـ هذه الشئون •

وكانت المنافسة الدولية الضارية واشتداد الخطر الفرنسي وتوسع المصالح البريطانية من أهم أسباب هذه الخطوة • لأن حماية امبراطورية واسعة غنية كالامبراطورية الهندية أصبحت أكبر من ان تستطيع شركة تجارية القيام بمهامها على الوجه الصحيح •

وهكذا يصح ان نقول : بأن مهام الحكومة الانكليزية في الشرق قد تحولت بعد سنة ١٧٨٤ الى حماية الامبراطورية وتقويتها وتوسيع رقعتها والسيطرة التامة على جميع السبل المؤدية اليها •

وبما ان الخليج العربي وعمان كانت تعج بالقبائل المناهضة للنفوذ الانكليزي • وبما ان موجة السخط على بريطانيا وكل الاجانب كانت عامة شاملة • وكانت الاساطيل الضخمة التي تملكها عمان والقبائل العربية في سواحل الهدنة ، تجوب بحر العرب والبحار المجاورة بحرية تامة • وكانت المنافسة بينها وبين أساطيل شركة الهند على أشدها • ولم يكن هنالك ثمة أمل في تخفيف المنافسة أو ايجاد أية

تسوية للتوتر القائم بين الجهتين • فأسطول شركة الهند كان لا يرضى بحل غير تدمير الاساطيل العربية واحراق موانئها •• وازالتها كلية من ميدان المنافسة • وكانت الاساطيل العربية ـ تدرك هذه الحقيقة • وتعلم ان التدخل الاجنبى فى السواحل العربية انما كان يهدف الى القضاء عليها والاستيلاء على تجارتها • فكان لا بد لها من تخوض حربا دفاعية مقدسة ضد التدخل الاجنبى وضد أسطول شركة الهند الانكليزية بالدرجة الاولى •

ان هذه الحرب الضاربة والمواقع البحرية الرهيبة التى نجمت عنها • كانت الحل الوحيد الذى يمكن ان تلجأ اليه قوة تحترم نفسها •• وتدرك مدى الخطر المحدق بها • ولكنها كانت حربا تهدد المصالح الاستعمارية تهديدا مباشرا أيضا • فوجه المستعمرون اليها هجومهم المادي والفكرى •• ونعتوها بكل نعت سيء ووصموا مقاومة الاساطيل العربية ودفاعها عن نفسها بأعمال القرصنة واللصوصية • ورفعوا شعار الحرب المقدسة ضدها •• لتحقيق حرية البحار •

ولم يكن يعني شعار حرية البحار بالنسبة اليهم ،الا حماية المصالح الاستغلالية التى كانوا يزاولونها • مع تأكيد زعامة الاسطول البريطانى وسيطرته على البحار •

ولكى يستطيع الانكليز فرض اشرافهم الدائم على الطرق البحرية واعطاء الصفة الشرعية لتدخلهم • اخترعوا أسطورة مكافحة تجارة الرقيق • فأتيح للاساطيل البريطانية ـ بهذه الوسيلة ـ ان تعترض جميع السفن ـ أيا كانت جنسيتها ـ وأن تفرض عليها ، عملية التفتيش • وكثيرا ما كانت تصادرها أو تفرض عليها الغرامات بحجة انها تتاجر بالرقيق •

لقد استغلت البحرية الانكليزية اجراءات محاربة تجارة الرقيق أسوأ استغلال متخذة فى هذه السلطة الاستثنائية التى منحتها لنفسها سلاحا فتاكا من جملة أسلحتها الاستعمارية الكثيرة ، لتوطيد السيطرة الانكليزية على البحار •

ففى المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٩ ، مع سعيد بن سلطان اشتركت الحكومة الانكليزية معها فى حق تفتيش السفن الاخرى ، سفن شركة الهند الشرقية • ورغم ما فى هذه المادة من هدر لمركز

السلطان وكرامته ، اذ أباح لشركة تجارية عادية حق الرقابة والتفتيش على سفنه ، والاشراف على أعمال أسطوله • فقد قبلها بذلة وخضوع•

وهكذا يتضح أن الاعتبارات الانسانية فى مكافحة الرق ومنع تجارته ، كانت الناحية الوحيدة التى لم تفكر فيها بريطانيا ، ولم تعرها أية أهمية • وذلك لأن الاهتمام الاول انما وجهته الى تعميق امتيازاتها وتوسيعها • وهذا ما كان يحققه لها الاشراف الفعلى على السفن غير الانكليزية •

ومن الادلة على ما تقدم أن الانكليز كانوا يرفضون اشراك غيرهم من الدول الاوربية فى المساهمة فى حق التفتيش والاشراف • فقد رفضوا اشراف الدولة العثمانية مثلا فى رقابة الملاحة فى الخليج العربى

كتب هتل يقول :

« ان الدولة العثمانية ستتخذ من هذه الرقابة حجة لارسال أسطول حربى الى الخليج ، وسيكون هدفها الحقيقى هو اعادة نفوذها فى بلاد العرب • فلابد اذن من توقيع اتفاق مع الدولة العثمانية يضمن لبريطانيا وحدها حق التفتيش •

ولم تكن معاملة الانكليز لفرنسا ـ بهذا الصدد أفضل من معاملتهم للدولة العثمانية • فقد اقترح (فانتانيه) قنصل فرنسا في بومباى على حكومته ارسال وحدتين بحريتين ترابط احداهما عند مدخل الخليج العربي والاخرى عند باب المندب •

فرفضت فرنسا اقتراحه معللة رفضها بسببين :

الاول : لانها تعارض خطة بريطانيا أصلا ولا تقبل بها •

الثانى : لكى لا تتراجع عن رأيها الاول فى معارضة عملية التفتيش على اعتبار أنها عملية سياسية لا علاقة لها بالمبادىء أو المثل •

ولكى تستطيع الحكومة الانكليزية القضاء على أسطول عمان وأساطيل بقية القبائل العربية الساحلية وتدير سفن المشيخات المطلة على الخليج العربى • أو مصادرتها هذه الحجة أو تلك • فقد تشددت فى استعمال هذا الاسلوب الشاذ ، وكانت تصادر السفن

مهما كان نوع البضائع التى تحملها ، بحجة أنها تحمل رقيقا سواء أكانت تحمل رقيقا حقا أم لم تكن ٠٠ لأن الغرض الاول ليس محاربة الرقيق بل مصادرة السفن العربية ٠

ان المادة الثانية من معاهدة أكتوبر ١٨٤٥ مثلا : أباحت مصادرة السفينة التى تحمل رقيقا ٠ فاستخدمت البحرية الانكليزية هـذه المادة فى جميع الحالات ، متسترة وراءها لاخفاء أعمالها الاجرامية التى أقل ما توصف به أنها كانت أعمال لصوصية وقرصنة ٠

كما كان البرلمان الانكليزى قد أصدر فى سبتمبر ١٨٤٨ قانونا يمنح للبحارة الذين يقبضون على سفينة كهذه مكافأة نقدية مقدارها خمس جنيهات عن كل رقيق كما يمنح ٣٠ شلنا عن كل طن حمولة للسفينة سواء أكانت تحمل بضاعة ما أم تكن تحمل شيئا آخرا ٠

وكان الغرض من وضع هذا القانون واضحا ، وهو تشجيع البحارة وربابنة السفن الانكليز على القرصنة والعدوان ٠٠ طمعا فى هذه المكافآت ومصادرة السفن العربية بدون سبب ٠٠ لأن الغـــرض هو مصادرتها ليس الا ٠٠

وقد دفعت المكافآت المغرية فعلا لربابنة السفن الانكليز ـ للاعتداء على سفن عمان وسواحل الخليج العربى ومصادرتها حتى ولو لم تكن تحمل رقيقا ٠ وذلك لمجرد اتهامها دون حق ، أو لمجرد وجود عامل ملون أو زنجى بين بحارتها ٠

وقد اعترف الانكليز بهذا السلوك اللصوصى الغادر ٠٠ وأقروا بأنهم كانوا كثيرا ما يعتدون على السفن العربية للوصول الى أغراضهم الـلئيمة المبيتة ٠

وهكذا كانت افتراءاتهم تحقق لهم هدفين :

أولا : مصادرة السفن واضعاف بحرية عمان والبحرية العربية عامة

ثانيا : اتخاذ مخالفة معاهدة ١٨٤٥ ذريعة للتدخل فى شــؤون عمان والمشيخات أكثر فأكثر ٠٠ وهذا ما كان يحصل باستمرار ٠

الفصل الثالث عشر

سياسة تدمير الأسطول العربي(١)

بلغت منافسة الاساطيل التجارية العربية لأسطول شركة الهند الشرقية وتجارتها حدا من الخطورة ، دفع بريطانيا للتفكير في نفض يدها من السواحل العربية في أول الامر ، والتخلي عن تجارة المنطقة والاكتفاء بالهند ٠

لقد قارنت انكلترا بين حسابي الارباح والخسائر فاكتشفت أن بقاءها في المنطقة لا بد أن يجر عليها مصاعب لا قبل لها بها ، لولا أن تعدلت هذه الحسابات بتبديل الظروف ٠

قال كرزن ما خلاصته :

« ان ضعف النفوذ الانكليزي في الخليج والمنافسة التجارية ومقاومة السكان الوطنيين أدت الى أن تفكر شركة الهند الشرقية بقطع صلاتها التجارية به ٠ »

ولكن التبدلات السياسية من جهة ، وازدياد أهمية الهند من جهة أخرى ، ومضاعفة الارباح المسلوبة منها ، وتحولها الى خزان طبيعي لتموين انكلترة ، أو الى « دجاجة ذات بيض ذهبي » على حد تعبير أحد المؤرخين ـ من جهة ثالثة ، دفع بريطانيا للالتفات الى الخليج العربي وعمان والاهتمام بالمنطقة أكثر من ذي قبل ٠

يقابل ذلك ، أن رضوخ سلاطين مسقط المهين لم يكن يأتلف ـ في الحقيقة ـ مع عظمة عمان ولا مع ضخامة أساطيلها ، أو قوة شكيمة قبائلها ٠ ولكن سلاطين مسقط لم يكونوا يمثلون هـــذه العظمة ، وبالتالي لم يكن خضوعهم ليؤثر على الوضع الحقوقي أو السياسي أو العسكري لعمان أو لقبائلها ٠ فكان هم بريطانيا منصبا على ازالة هذه العقبة من سبيلها بالقضاء على الاسطول العربي مصدر اعتزاز المنطقة وقوتها ٠ وبذلك يتم للانكليز اخضاع القبائل العربية الثائرة واذلالها ، بصرف النظر عن مواقف سلاطين مسقط ٠

ان رضوخ سلاطين مسقط للانكليز ، وارتباطاتهم المتتالية معهم ،

---

(١) لاحظ الخريطة ص ١٢٧

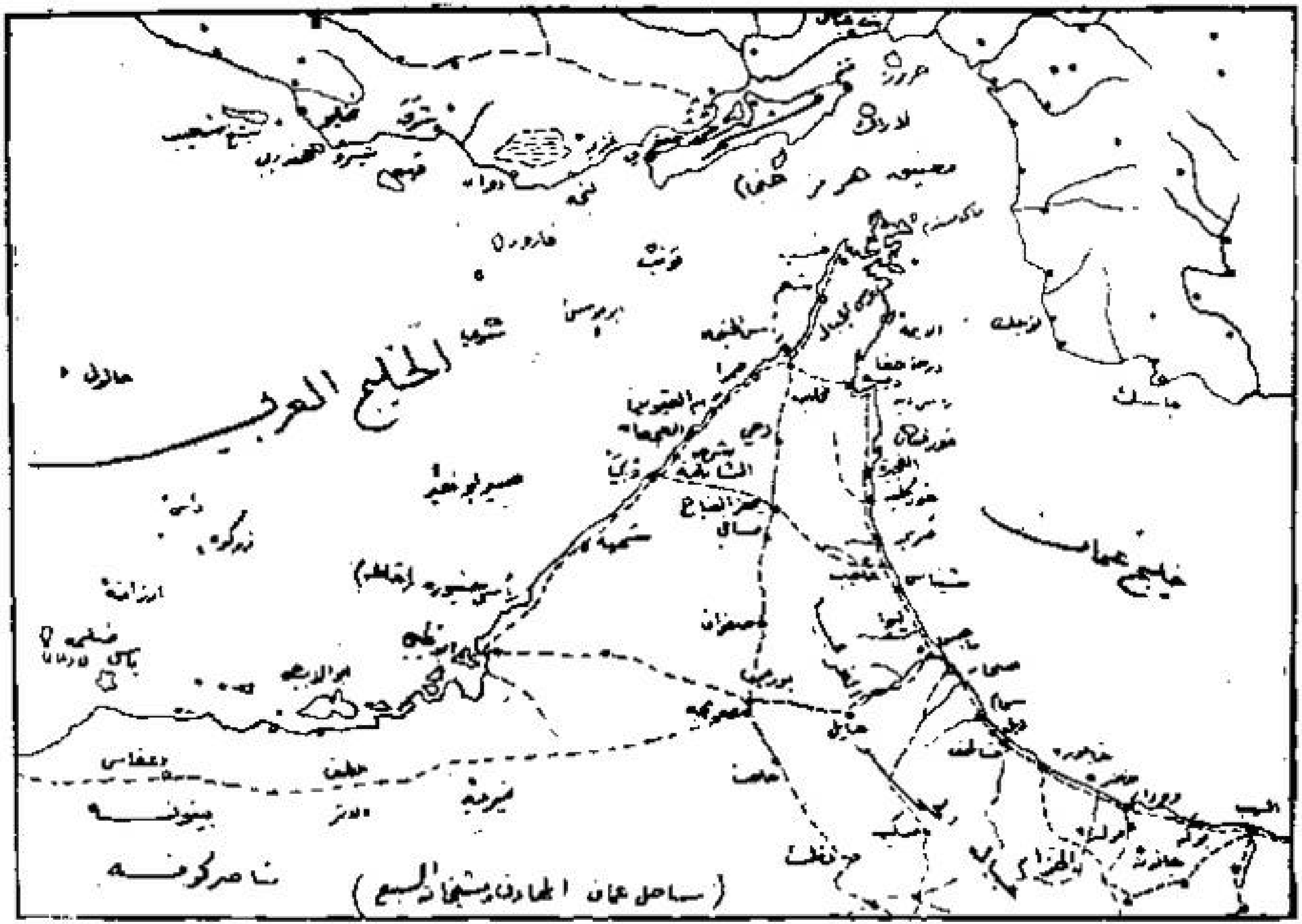
لم تلزم عمان الداخلية ولا ألزمت القبائل أو سواحل الهدنة ، وانما ألزمت سلطان مسقط والمنطقة الساحلية الضيقة التابعة له فقط ٠ لذلك لم تقم القبائل وزنا لارتباطات مسقط وتعهداتها ٠ بل ثابرت على منهجها الخاص ، في مقاومة الانكليز والهجوم على سفنهم ، وتهديد مواصلات امبراطوريتهم ٠ وكيل الصاع صاعين لاعمال التحرش أو الاعتداءات التي كانت تتعرض لها السفن العربية من الاسطول الانكليزي ٠

كانت بريطانيا تدرك أن تعاقدها مع سلطان مسقط لا يلزم عمان الداخلية كما ولا يلزم سواحل الهدنة ولا القبائل العربية البحرية كقبائل الجواسم الباسلة ٠ الا أن بريطانيا ـ رغم ذلك ـ تذرعت باتفاقها مع مسقط ، وأخذت تشن بموافقتها ، ومعها ، الغارات المشتركة لاخضاع القبائل العربية وتدمير معاقلها ٠

قبائل الجواسم :

كانت قبائل الجواسم وحلفاؤها ، يقطنون سواحل عمان الشمالية الغربية ـ سواحل الهدنة ـ ٠ ولسواحل الهدنة أهميتها ، فهي تمتد أكثر من ٣٠٠ ميلا من حدود قطر حتى منطقة الكلبة ٠ ويقطن الى جوار الجواسم قبائل أخرى من أهمها (بني ياس) وبعض (بني بو علي) ٠

والجواسم قبائل عربية قديمة يطلق عليها اسم (القواسم) أحيانا نزحت ـ على الغالب ـ من العراق ٠ وسكنت الساحل العماني فكانت تابعة لائمة عمان في كل شيء ٠ الا أن الجواسم ما لبثوا أن استقلوا عن عمان ، واستأثروا بحكم رأس الخيمة ، بزعامة الشيخ رحمة بن مطر ، على اثر سقوط أسرة اليعاربة وتفرق شمل عمان وضعف الامامة فيها ٠ فلما ظهرت الدعوة الوهابية ، استجاب الجواسم لها وأصبحوا من جملة حلفائها في منطقة الظاهرة في عمان ٠ على أمل أن يتقوا بها غارات الانكليز من جهة ، وأن يعززوا انفصالهم عن عمان واستئثارهم بالحكم في رأس الخيمة من الجهة الثانية ٠ ولكن قبائل الجواسم لم تستطع اتقاء الغارات الانكليزية ٠ فقد اشتدت عليها هذه الغارات ٠٠ ولم يقدم لها الوهابيون تلك المعونة التي كانت تحلم بها ٠



خريطة تبين موانئ الأسطول العربي

لقد أقلقت القبائل العربية الساحلية بريطانيا ، أكثر مما أقلقتها أية منطقة أخرى في الخليج العربي •

فقد امتازت هذه القبائل بالشجاعة والصلابة وحب المغامرة • وظل الملاحون العرب الذين ينتمون اليها ـ على مدى ثلاثة قرون ـ أنشط الملاحين في المحيط الهندي • والبحر العربي والخليج العربي• وقد اشتد خطر هؤلاء على أسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية حينما أخذت السفن الانكليزية تتحرش بهم وتقترب من سواحلهم وتعترض لسفنهم وترفض دفع الرسوم المتفق عليها عند التجول في مناطق نفوذهم أو في مياههم الاقليمية •

وقد انقلبت المناوشات والتحرشات الى معارك وحروب وغارات مفاجئة • فكم من معركة بحرية ناجحة خاضوها ضد أسطول شركة الهند • وكم من مرة أسروا السفن الانكليزية وصادروها أو دمروا بعضها نتيجة عدوانها • حتى أن حاكم بومباى الانكليزى استجار منهم بحكومته •• وشكى من أن سفن الجواسم تلحق أحيانا بالسفن الانكليزية حتى شواطىء الهند ذاتها فتتغلب عليها •

وان من يطلع على ما كتبه موظفو شركة الهند ، ولا سيما سجل أعمال الاسطول الانكليزى في الخليج وبحر العرب وبحر عمان ، لابد أن يتملكه الاعجاب بالمقاومة الباسلة التى أبداها أولئك الملاحون البواسل وأن يتولاه العجب من عنف المعارك التى خاضوها ، ومن روعة البطولات التى سطروها • ضد أساطيل العدو المغيرة ، لا على شواطئهم العربية فحسب بل على الشواطىء المعادية ذاتها فيسواحل الهند وافريقيا والبحر الاحمر •

ولكن انكلترا استطاعت أن تميل بكفة النصر الى جانبها ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وأخذت ـ نتيجة تعاونها مع سلطان مسقط الخائن ـ تنزل الخسائر بقبائل الجواسم • ففى سنة ١٨٠٥ أنزلت أولى ضرباتها المهمة بهم • ولكن خسارة الجواسم للمعركة لم تقض عليهم • فاستمرت المعارك ستة أخرى ، جال الملاحون العرب فيها عدة جولات موفقة • ولكنهم لم يستطيعوا الصمود • فالسفن الانكليزية قد تطورت خلال القرنين الاخيرين فأصبحت سفنا تجارية ضخمة مزودة بأحدث الاسلحة وأفضلها • في حين ظلت السفن العربية محتفظة بأسلوبها القديم وقوتها القديمة • فلم يكن منالمعقول

ولا الممكن أن تصمد أكثر مما صمدت · هذا من جهة · ومن الجهة الاخرى فان الاساطيل العربية لم تكن تؤلف أسطولا واحدا ، بل كان كل أسطول يتبع القبيلة التى تمتلكه · فلم يكن يشترك في المعارك الا قسم صغير منه · بينما تبقى أساطيل القبائل الاخرى متفرجة ، حتى يأتي دورها ·· فيتم لبريطانيا التغلب على القبائل متفرقة ·· الواحدة بعد الاخرى ·

لقد اعتاد الانكليز ـ منذ زمن طويل ـ على مداهمة أعدائهم الواحد بعد الآخر · ولكي يتم لهم ذلك ، كانوا يبثون الفرقة والتشتت بين هؤلاء الخصوم قبل اعلان الحرب عليهم · وهذا ما جرى فى سواحل عمان الى حد ما · وفي بعض الظروف على الاقل ·

ولئن كانت المعارك الضارية بين القبائل العربية وبين الانكليز متفرقة متباعدة ، الا أنها كانت ذات طبيعة واحدة · فأسبابها كانت واحدة · وأغراض الانكليز من شنها واحدة أيضا ·

وهكذا فان معارك الجواسم والبنى بو علي وغيرهما من القبائل ضد أسطول شركة الهند وضـــد جيوش الانكليز البرية لم تكن أعمال قرصنة أو لصوصية · وانما كانت حربا دفاعية مقدسية · بدأها الانكليز أنفسهم ، بتحرشاتهم ، وبتدخلهم فى شؤون الســـواحل العربية وبرفضهم دفع الضرائب والرسوم الطبيعية المتفق على دفعها مع الشركة حين دخول سفنها الى الموانىء العربية ·

كانت شركة الهند الشرقية قد عقدت معهم اتفاقيات تدفع بموجبها رسوما خاصة لقاء تجول سفنها فى المياه العربية · ولكنها ما لبثت أن رفضت تنفيذ هذه العقود · فكان من البديهى أن يدافع الجواسم عن مياههم وعن حرمة الاتفاقيات التى عقدت معهم ·

لم تكن القضية ـ بالنسبة لبريطانيا ـ قضية رسوم أو ضرائب · وانما كانت الخشية من قوة أساطيل العرب وخاصة أسطول الجواسم وايقاف منافستها التجارية للتجارة البريطانية ، وازالة العقبات المحتملة من طريق الامبراطورية · فاختلق الانكليز المعاذير والاساليب لمحاربة الاساطيل العربية ومن ثم تدميرها والقضـــاء على أخطارها المحتملة فى المستقبل ·

هكذا بدأت الحروب البحرية والبرية بين انكلترا والقبائل العربية

فاستمرت قرنين كاملين • وكانت ميادينها تمتد من شواطىء الهند حتى شواطىء الخليج العربى •

لقد رضخ الجواسم للقوة القاهرة ــ حين أدركوا أن المقاومة لم تعد تجدى ــ وأن أسلحة الانكليز أشد فتكا من أسلحتهم ، فوقعوا على الاتفاقيات التى طلب منهم أن يوقعوا عليها سنة ١٨٠٦ • وقد اشترط الانكليز عليهم فى هذه الاتفاقيات احترام راية الشركة وعدم التعرض لسفنها قبل أى شىء آخر •

كان الجواسم يعتقدون أن الاتفاقية مجموعة من الحلول الصادقة التى وضعت لتحسم نزاعا قائما بين ندين •• ولتضع قواعد جديدة للمعاملة السلمية بين شعبين متساويين •• فى حين كان الانكليز يعتبرونها مجرد خطوة أولية تساعد على تحقيق أهدافهم الاخرى • وكانوا لا يعتبرون الجواسم أندادا لهم ، بل ولم يكن ليدور فى خلدهم أن يسمحوا لسلطتهم أو لاساطيلهم أو لتجارتهم بالبقاء •

كان الهدف الحقيقى الذى رسموه هو أن يدمروا أساطيلهم وأن يهدموا موانيهم وأن يستأصلوا شأفتهم من المنطقة ، وأن يحولوا الباقين منهم الى عبيد •• يخدمون السلطة الانكليزية •• ويسيرون فى ركابها أنى سارت بدون أعتراض •

وهكذا كان من البديهى أن يدب الخلاف بين الفريقين على تفسير الاتفاقية فور توقيعها • فقد أبى الجواسم تنفيذها ، حالما اكتشفوا مرامى الانكليز وأهدافهم البعيدة • وتبين لهم خطل أسلوبهم السابق فى المقاومة المتفرقة المشتتة • وأدركوا أن ضرورات الدفاع ــ قبل اى سبب آخر ــ تدعوهم لتوحيد جهودهم مع بقية القبائل والمدن على السواحل المجاورة القريبة والبعيدة •• على الساحل وفى الداخل ضد العدو المشترك •• حتى ولو اضطروا لاستعمال الشدة مع من لا يدرك أهمية توحيد الكفاح • فمتنوا علاقاتهم بالوهابيين من جهة واتصلوا بالقبائل على سواحل الخليج وتبادلوا المعونة مع المكافحين منها • ومتنوا العلاقات القديمة بينهم وبين قبائل شط العرب وعربستان والبحرين وقطر ، كما كان شأنهم منذ نصف قرن مضى أو يزيد • ولاحقوا التدخل الاجنبى فيها الى جانب أهلها •

وهكذا مرت على المنطقة فترة استمرت ١٢ عاما كانت مليئة بالاحداث الكبرى • فترة حرب جذرية شاملة بين القبائل العربية

الثائرة هنا وهناك وبين التدخل الاجنبي بشتى صوره ·· وخاصة الانكليزي ·

ولئن انتهى هذا الكفاح البطولي بانتصار الاستعمار الانكليزي وفرض معاهدات ١٨٢٠ الا أنه كشف عن قوة عربية كامنة وينبوع للبطولات والكفاح الثوري لا ينضب ولا يغلب اذا ما أتيح له التنظيم والتسليح ·

كان الهم الاول للجواسم أن لا يمتد النفوذ الانكليزي الى المناطق المجاورة ذات الموقع العسكري (السوقي) الخطير · لأن الاستيلاء على مثل هذه النقاط لا بد أن يؤثر على نتيجة المعركة · فكانوايحاربون الانكليز في مناطقهم ولا يغفلون عن مراقبة توسع الانكليز بالمناطق الاخرى ·

ولما كانت جزائر البحرين ذات موقع حربي خطير ، وكان جنود مسقط المتحالفين مع الانكليز قد نزلوا فيها بمعرفة الاسطول البريطاني وبحمايته وبقصد مساعدتهم وسند ظهورهم ·· فقد هاجم الجواسم البحرين وطردوا جنود مسقط منها ، فجن جنون الانكليز ، وصاروا يرجفون أن الجواسم بدأوا يهاجمون اخوانهم العرب · وهم يريدون احتلال البحرين ونهبها · الا أن ذلك لم يؤثر في معنويات الجواسم ولا في معنويات شعب البحرين العربي الذي وقف الى جانبهم ضد الغزاة الانكليز وصنائعهم جنود مسقط ·

وفي سنة ١٨٠٩ ، أعد البريطانيون ـ بمعرفة سلطان مسقط ـ حملة كبيرة ضد قبائل سواحل الهدنة ، متهمين اياهم بأنهم آلات في يد الوهابين وان أعمال القرصنة مدفوعة من أولئك الذين يحكمون في الرياض · وان غرض الحملة هو تأديبي ليس الا · والحقيقة التي انكشفت ـ بعد نهاية الحملة ـ أن الغرض كان التدمير والابادة لا التأديب · فالحرق والاغراق والتهديم والتقتيل العام ، كانت أبسط التدابير التي لجأ اليها الغزاة الانكليز وأعوانهم الخونة ·

وقد ظهر كذب القادة الانكليز وافتراءاتهم بعد زمن من حملاتهم الاجرامية واعترف بهذا الكذب والافتراء ، كبار مؤرخيهم والمسئولين منهم ·

قال المؤرخ البريطاني الرسمي : لوريمر :

«عقب استقرار الوهابين في البريمي ، زادت القرصنة واعمال العصيان في البحر ، وقد عزى ذلك ـ في الهند بصفة رئيسية ـ الى نفوذهم ، غير ان الدراسة المجردة من العاطفة للحقائق ، بعد انقضاء أكثر من مائة سنة ، لاتؤكد ـ بأي حال ـ الرأي المعاصر المتطرف ، القائل بأن القواسم كانوا ، في الحوادث التي وقعت الان ، مجرد آلات لاارادة لها في ايدي الوهابين ، فان الصفات التي فطر عليها القواسم ، كما ظهرت في مسلكهم في سنوات (١٧٧٨ و١٧٩٧) وان سياسة حكومة بومبي ٠٠ تغني عن هذا البحث ، عن أي شرح آخر متعلق بالنفوذ الوهابي ، للاحداث التي كانت تعمل ٠٠ وينبغي أن نذكر بأن الجبر من قبل الوهابين ، قد هيأ عذرا طيبا لايمكن التحقق منه ، لاعمال لايمكن تبريرها بحال» ٠

وتبدو خيانة سلطان مسقط في هذه الحادثة العدوانية الرهيبة واضحة ٠٠ من كتاب (جوناثن دنكن) ، حاكم بومبي الى حاكم مسقط في سنة ١٨٠٩ الذي يقول له فيه :

«انني أعتمد مطمئنا على عظمتكم لتقدموا كل مساعدة ممكنة لتحقيق أهداف هذه الحملة التي تم القيام بها أولا ، وبالتأكيد بناء على اشارة من عظمتكم» ٠

هاجمت الحملة رأس الخيمة ، فنهبت وسلبت ودمرت في يوم واحد كل ما وصلت اليه أيدي جنودها ، قال (ريمر) : ان كل واحد من الانكليز ، قد زادت ثروته في ذلك اليوم مالايقل عن (٣٠٧) جنيها ، كما دمرت مائة سفينة عربية في الميناء ثم هربت الحملة بعد العدوان بيوم واحد ، مخلفة وراءها الدمار ٠٠ ولم يكن عملها هذا ـ بحد ذاته ـ الا نوعا من أنواع القرصنة المتعمدة التي زعمت أن العناية قد أرسلتها لمحاربتها ، وكانت الحملة في نوفمبر ١٨٠٩

وفي أوائل يناير ١٨١٠ هاجمت القوة الانكليزية بذاتها ، وبناء على الحاح حاكم مسقط ميناء شناص على ساحل عمان لنفس الغرض ٠٠ فأنزلت فيه خسائر مماثلة

وفى عام ١٨١٤ اشترك حاكم مسقط وزعيم بني ياس (فى أبوظبى) بعمليات تدميرية مماثلة ضد رأس الخيمة تحت حماية الاسطول البريطانى بحجة أن القواسم قد لموا شملهم وأعادوا قوة اسطولهم ، وبدؤوا يعملون لتكوين حلف من القبائل ضد الانكليز

وفى عام ١٨٢٠ اضطرت الجواسم - تحت ثقل هذه الضربات - لقبول تعديل الاتفاقيات السابقة والقبول بمعاهدة جديدة مع انجلترا نال فيها الانكليز ضمانات أكبر ٠٠ وحقوقا أكثر سعة من ذى قبل ثم اتخذ الانكليز من هذه المعاهدة انموذجا لجميع المعاهدات التى أجبروا رؤساء القبائل وأمراء المشيخات وامارات الخليج العربى على القبول بها والتوقيع على نسخ مماثلة لها تقريبا ٠

كان الانكليز ، كلما فرغوا من اخضاع قبيلة أو شيخ أجبروه على توقيع نسخة مماثلة للمعاهدة المذكورة ، فلم تمض سنوات قليلة أخرى حتى أخضعوا جميع السواحل وفرضوا عليهم القيود بالقوة القاهرة ، ولم يخضع الجواسم فقط ٠٠ بل خضعت قبائل كثيرة غيرها من القبائل الساحلية ٠

والجواسم بمناهضتهم للنفوذ الانكليزى لم يكونوا أعداء لهذا النفوذ بالذات ، بل حاربوا كل تدخل أجنبى آخر ، قبل عام ١٨٢٠ وبعده ، ولا أدل على ذلك من أن فارس عندما أرادت الاستعانة بأسطولهم فى عام ١٨٢٣ ، ودعت شيخهم سلطان بن صقر للمفاوضة معها فى بندر عباس ، امتنع الشيخ سلطان عن مفاوضة فارس ، أو تأييد منهجها الاستعمارى بأباء ٠٠ كما رفض الجواسم أشد العروض الاخرى اغراء ٠

ومن الجدير بالذكر ، أن توقيع معاهدة ١٨٢٠ لم يحل المشكلة بالطبع ولم يقض على النزاع بالمرة ٠٠ وكل مافعله أنه حول الحروب الشاملة المنظمة قبل ١٨٢٠ الى حروب متفرقة مشتتة بعد عام ١٨٢٠ والسبب فى ذلك يعود الى عوامل رئيسية منها :

أولا : لان أهداف المعاهدات كانت تعني أشياء مختلفة بالنسبة لاختلاف الاطراف كما سبق وشرحنا ذلك قبل قليل ، فكانت بمثابة المخدر يوقف الاحساس بالالم فترة قصيرة ٠٠ ولكنه لا يزيله ، بل يعمق آثاره ٠٠ ويضاعف أخطاره ٠

ثانيا : لان سبب الخلاف الحقيقي وهو التدخل الاجنبي ٠٠ كان يشتد ويتضاعف بعد كل معاهدة أو أتفاقية ، وبالتالي كانت النقمة تشتد والعداوة تتأجج ، وتأخذ المناهضة أشكالا جديدة ٠٠ تتسرب في مجاري جديدة ٠٠ ليس الا ٠٠

ثالثا : لان انكسار قبيلة ما في معركة من المعارك لم يكن كافيا للقضاء عليها أو اخفاء قوتها ، فالقبائل تتشتت بعد الهزيمة عادة بسرعة فائقة ٠٠ ولكنها تعود للتلاحم بعد انتهاء الخطر بنفس السرعة والعزم ، هذا دين القبائل ٠٠ منذ عهد بعيد ٠٠ منذ معركة ذي قار حتى اليوم ، فالصحراء مأمنها الطبيعي ٠٠ تقوم دائما وراء ظهرها ليحميها وكان هذا يدفعها ـ بصورة مستمرة لمعاودة الكفاح ٠٠ كلما وجدت فرصة سانحة ٠

بل كان يظهر ـ دائما ـ في ميدان الكفاح ضد النفوذ الانكليزي قبائل جديدة ، لاعهد للانكليز بها ٠٠ تضمها الاخوة ٠٠ والحلف ٠٠ والتلاحم القبلي المعروف جيدا في التاريخ الى جانب أبناء جنسها ٠

فكلما تأزمت الامور ٠٠ وجدت على السواحل العربية أحداث جديدة ، وبدأت الاضطرابات تلعب دورها ، كان شعار مقاومة النفوذ الانكليزي ٠٠ يرتفع عاليا ٠٠ ويدفع تحت لوائه عشرات من آلاف المناهضين والثائرين من القبائل العربية القاطنة على هذه السواحل المكتوية بمآسي المستعمرين ٠

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان فشل سعيد حاكم مسقط في حملته على البحرين وفي تحقيق مطامعه الاخرى على سواحل الخليج ولاسيما بعد سنة ١٨٢٢ شجع كثيرا من القبائل للثورة عليه وعلى أسياده الانكليز ٠

وكانت قبائل بنى بوعلى من أول من رفع لواء هذه الثورة فى منطقة صحار ·· ثم قادها ببسالة نادرة ·

يضاف الى ذلك أن معظم القبائل المجاورة ، كانت عاضبة على سعيد لخنوعه الذى لاحدود له ، أمام النفوذ الاجنبى المعادى ، فلم تعترف له بسيادة عليها قط ·· وكان هذا الشعور مما سهل عليها آشهار الحرب عليه أو على السفن الانكليزية المؤيدة له ·

ان أية قبيلة من هذه القبائل ·· التى تقطن فى المنطقة التابعة لمسقط ·· بل فى المناطق البعيدة كانت تجد أن من واجبها محاربته والقضاء عليه ، ولم تجد غضاضة من وقوفها مع القبائل الثائرة ضده

وكان أكبر ماتهدف اليه فى البحر قطع طريق السفن الانكليزية والاستيلاء على أية سفينة منها تقترب من الشواطىء التى تقطنها ·· أو تدميرها على الاقل ·

ففى سنة ١٨٣٤ هاجم (بنو يلهى) طرادا بريطانيا وأتلفوه ·

وكان بنو بوعلى قد أنزلوا بالانكليز هزيمة شنيعة فى عام ١٨٢٠ أربكت الحكومة الانكليزية فى الهند وأذلتها الى درجة أن حاكم مسقط الاجير أصبح يشنع على الجنود الانكليز ويتهمهم بالجبن ·

قال مؤرخ البيت الحاكم فى مسقط عن هذه الحملة ·

«فلما رأى السيد (حاكم مسقط) انفلال شوكة الانجرز (الانكليز) ورقة عزايمهم ، وقلة من ثبت معه من قومه أمر بالمسير الى مسقط ·

أى انه أمر الجنود بالنكوص والهزيمة ·

وقد كان للهزيمة رد فعل كبير على الانكليز ·· من جهة ·· كما تركت أثرها المشجع على القبائل العربية الثائرة من جهة أخرى ·

فهى فضلا عن بعثها للعزائم والهمم فى قلوب المقاتلين العرب ، من عربستان حتى جنوب عمان ، فانها شتتت أعوان سلطان مسقط من حوله وبعثت فى نفوسهم الخوف والمهانة ·· كما أجبرت الانكليز على الاعتراف بالهزيمة ·· وتحرى العوامل التى سببت وقوعها ·

يقول اللفتننت أورمسبى عن رد فعل هذه الهزيمة لدى الحكومة الانكليزية فى الهند مايلى :

« أبديت دهشة غير ضئيلة في الهند لدى وصول معلومات عن حدوث هذه الكارثة ، أن احداث حروبنا الهندية ليس فيها مثل هذه الكارثة • كلا فلو راجعنا تاريخ الحملات الهندية لوجدنا البريطانيين انتصروا في غالب الاحيان على قوات تفوقهم عددا ، أما هنا فقواتنا التي أحضرت للعمل تتساوى تقريب في العدد مع القبيلة المعادية بالاضافة الى مساعدات قوات الامام»

الفصل الرابع عشر
نهوض قبائل في الشمال يساند النهوض القبائل في الجنوب

لقد رافق النهوض القبائلي في الجنوب نهوض قبائلي آخر في شمال الخليج العربي ، لايقل أهمية عنه •

فمنذ أواسط القرن الثامن عشر ، وفي الوقت الذي اشتدت فيه أخطار أساطيل سواحل عمان على الانكليز قام الاتحاد القبائلي في الشمال (في عربستان وشط العرب) بدور مماثل •• وقد قربت وحدة الجنس بين الاتحادين فقامت علاقات وتبودلت المساعدات التي سنكشف عنها في بحثنا التالي •

عربستان :

تقع بلاد عربستان الخصيبة ، الغنية بتربتها وثرواتها المعدنية الثمينة ـ البترول ـ الى الشرق من شط العرب ، في قمة الخليج العربي الشمالية الشرقية ، وهي تتألف من أراضي طموية واسعة ، تخترقها جداول ومجاري مائية كثيرة العدد ، يتفرع بعضها من شط العرب ، ويتفرع البعض الاخر من نهر قارون ، وهي لذلك منطقة مزرعية واسعة •• ذات اهوار ومستنقعات وجزر لا حصر لها •

والمنطقة ـ بصورة عامة ـ جزء طبيعي من وادي الرافدين ، ومن دلتا شط العرب ومجرى نهر قارون الادنى ، تنتهي في الشرق بأرض متموجة هي السفوح الغربية لجبال پشتكره الايرانية ـ الحد الطبيعي الفاصل بين بلاد العرب وايران ، فهي بهذه الصفة جزء أساسي من الوطن العربي لايتجزأ ـ جغرافيا وتاريخيا وبشريا ـ

ومهما حاولت الحكومة الايرانية ـ التي تحتلها اليوم ـ انكار هذه الحقيقة الطبيعية وطمس معالم عروبتها ، فانها أعجز من أن تمحو

سكانها بكاملهم من الوجود • منهم قبائل خزعل من سكان عربستان والحويزه العربية الخالصة التي مازالت تعيش وفق النظم العشائرية القديمة •

قبائل كعب والمحيسن :

كانت قبائل كعب قد نزحت الى عربستان في أواسط القرن الثامن عشر ، واستفادت من انشغال ايران بالنزعات الداخلية التي قامت من اجل العرش بعد وفاة نادرشاه ، فاستولت على منطقة واسعة من ايران الجنوبية الغربية وجعلت مركزها الفلاحيه ، فلما استقرت الامور ـ نسبيا ـ بفارس ، وبدأت مقاومة الحكومة الايرانية للقبائل العربية اضطرت كعب للنزوح ـ تحت الضغط الشديد ـ الى الضفة الغربية من شط العرب •

ولكن قوتها أخذت في النمو نموا سريعا فعادت للامتداد نحو الشرق حتى ان نموها أقلق الاتراك والايرانيين فشرعوا في مقاومتها ، واستعانوا بشركة الهند الشرقية عليها ، ولكن الحملات المشتركة (البرية والبحرية) التي اشترك فيها الايرانيون والاتراك والانكليز عجزت عن اخضاع قبائل كعب وفشلت في مساعيها لتفتيت القبيلة أو تدمير أسطولها الناشيء ، بل على العكس ، أنزلت قبيلة كعب خسائر فادحة بجميع الاطراف ، يساعدها على ذلك طبيعة الارض التي تعيش فيها

لقد شجعت الانتصارات المتوالية كعب فعادت الى عربستان •• واستولت عليها بكاملها وبسطت نفوذها في أرجائها المختلفة مرة أخرى

وفي سنة ١٨١٢ نزحت قبيلة (المحيسن) الى المنطقة ذاتها ، وقطنت الى جوار بني كعب ، عند مصب نهر قارون ، فأسس شيخها مدينة المحمرة من بقايا مدينة قديمة كانت قائمة هناك قبل ست قرون •

كان الانكليز ـ في هذه الاثناء قد ثبتوا أقدامهم في العراق •• فقد حصلوا على حق احتكار النقل النهري في جنوب العراق من الحكومة العثمانية ، وكانت قد انتشرت تجارتهم في المنطقة فأقاموا لهم وكالة في البصرة وأخرى في بغداد ، بل لقد سمح لهم أن يقيموا قوة عسكرية دائمة في قنصليتهم في بغداد ، فلم يعجبهم نمو قبائل كعب وصمموا على التخلص منها ، ومنع سيطرتها على المنطقة الحساسة التي تمر منها طرقهم المائية وهي شط العرب ، وكعادتهم في مثل هذه

الظروف لجأوا الى نشر العداء والفتنة بين القبائل ٠٠ وخاصة بين المحيسن وكعب ، فوقفوا الى جانب المحيسن في نزاعها مع كعب وشجعوها ٠٠ وبعثوا في نفس شيوخها الطمع في طرد كعب من المنطقة والحلول محلها ٠٠ وقد استجاب بعض شيوخ الى هذه الفتنة ووقفوا بدورهم الى جانب الانكليز ٠٠ ولكن بدون جدوى ٠

قدم النفوذ العربي في المنطقة :

ان النفوذ الكبير الذي وطدته القبائل العربية في منطقة عربستان والمحمرة والحويزة وشط العرب لم يكن جديدا ، ولم يتم في فترة قصيرة الامد ، ولا لمدة مؤقتة عابرة كما قد يبدو من كلامنا ٠٠ للوهلة الاولى ، بل كان استمرارا لهجرة عربية متواصلة قديمة قدم الاقوام السامية في العراق ٠٠ ولكن النشاط القبائلي ٠٠ كان يغمر العراق ٠٠ بين فترة وأخرى ، وقد عين الزمن بين الفترتين بعدة قرون والموجة الاخيرة التي نشير اليها ٠٠ كانت قد بدأت منذ ألف عام مضى ٠٠ وما هجرة كعب والمحيسن الا صفحة أخيرة من صفحات هذه الموجة ٠٠

يقول المؤرخ الانكليزي لونغريك :

« في أراضي عربستان الزراعية المنبسطة ، كانت تستقر قبيلة بعد أخرى من زراع الرز ومربي الجاموس ٠٠ فكانت تمتلك الارض وتسيطر على سبل المنطقة ، وتفرض الضرائب على المواصلات النهرية دون معارض على حدود طويلة أقلقت ـ أخيرا ـ القوات العظيمة في العالم ٠

لقد أنشأت القبائل العربية التي قدمت الى المنطقة وحدات سياسية شبه منظمة في أزمنة مختلفة غير محددة ، كان معظمها بعد سقوط اتابكي القرن الرابع عشر في خوزستان (عربستان) لاسيما وان منطقة (لورستان) الكبرى كانت قد تمزقت ، وتحولت الى حكومات عشائرية صغيرة ، منفصل بعضها عن بعض ، فقد كانت السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر ـ في لورستان ـ سني ثورات واضطرابات وفتن ، أدت الى سقوط الاتابكيين ، وقد سقط آخر اتابكي في لورستان الصغرى (يشتكوه) بعد ان هوجم من قبل تيمورخان الاردلاني في عام ١٥٨٥ ٠

وهكذا ٠٠ لم يكن الكعبيون أو المحيسن آذن ٠٠ أول القبائل العربية

التي قدمت الى المنطقة بل انهم ، وجدوا فيها ، قبائل عربية قديمة أخرى قد سبقتهم .. وقد كونت قاعدة شعبية ذات جذور فى المنطقة فانضمت الى القبائل الجديدة وانضوت تحت لوائها ـ بحكم تشابه المصالح ووحدة اللغة والجنس ـ وركزت نفوذها وجعلته أبديا .. لا مؤقتا .

واذن فان نهضة القبائل العربية الحديثة فى المنطقة لم يكن حدثا طارئا او موقتا .. فالمنطقة كانت عربية خالصة منذ زمن طويل سابق وسرعان ما اندمج العرب الأقدمون بالعرب المحدثين .. مكونين وحدة قومية قوية لا تنفصم .. ولولا هذه الوحدة لما تمكنت هذه القبائل من حماية أنفسها ومن التغلب على ثلاثة حلفاء أقوياء .. وعلى فرض جنسها ولغتها حتى اليوم .

والى الشمال قليلا من بنى كعب .. كانت القبائل العربية قد وطدت ـ بدورها ـ منذ آلاف السنين أقدامها فى المنطقة وشرعت فى المدة الاخيرة ، تقيم اركان سلطنة عظيمة ، أقلقت الدولة العثمانية خلال القرون التالية ولعبت أدوارا شديدة الخطورة فى تاريخ العراق والخليج العربى معا ، فقاومت النفوذ الاجنبى باصالة ووعى وصدق واستطاعت ـ بحكم هذا الوعى ـ أن تلتقى مع أمانى الشعب العربى فى عمان والسواحل فى أقصى الجنوب العربى متخطية الحواجز ، موحدة كفاحها ضد العدو المشترك .

ان هذه القبائل العربية الباسلة لم تخضع ـ فى يوم من الايام ـ للدولة العثمانية ، أو لغيرها من الدول ، ومع أن أمير الحويزه كان أرسل سفارة خاصة الى السلطان سليمان القانونى الذى فتح العراق على سبيل المجاملة ودفعا لشره .. فان اتباعه (البرمانيون ـ المزارعون البحارة) كانوا لا يألون جهدا فى ازعاج الدولة العثمانية ومهاجمة مراكزها الرئيسية وانزال الضربة تلو الضربة بهذه المراكز ، وخاصة بالبصرة وشط العرب . دون أن يعبأوا بأسطول الدولة العثمانية ، ولا بأساطيل حليفتها ايران أو اساطيل حليفة الطرفين شركة الهند الشرقية الانكليزية ، فقد نشبت ـ فعلا ـ معارك بين القبائل العربية من جهة وبين أساطيل شركة الهند وحلفائها من الجهة الاخرى ، فكانت معظم هذه المعارك تنتهى بانتصار العرب ، حتى غدا نفوذ أمراء الحويزة

والقبائل العربية الاخرى الموزعة بين الاهوار والجزر والآجـــام الصعبة مطلق لامنازع له .

ولادة الاتحاد القبلي :

لقد شهدت المنطقة ، في أوائل القرن السابع عشر ، ولادة اتحاد قبائلي قوي ، لامثيل له فيما مضى . فكانت قبائل بني مالك والاجود وبني سعد ، ومئات الفروع القبلية الصغيرة التي تعيش في كنفهـا أو حليفة لها قد كونت قوة هائلة يصعب التغلب عليها .

على أن هذه الجمهرة الكبيرة من البشر ، وأن كانت لاتحمل اسما عاما واحدا ذا طابع قومي حديث ، الا أن الرابطة الحقيقية التي كانت تجمعها على صعيد واحد .. انما هي الرابطة القومية .

فوحدة اللغة ، وتشابه المعيشة ووحدة العادات والتقاليد والآمال المشتركة كانت حقائق مادية ملموسة .. كافية لانشاء قواعد هذا التحالف ، وارسائها على أسس سليمة ، بل ان هذا الاتحاد القبائلي قد هز تلك المنطقة وكان له تأثير بالغ الاهمية . فقد عرقل الحركة الاستعمارية العملية أكثر من قرن ، وخلق لها المصاعب والارتباكات لافي عربستان وشط العرب والعراق فحسب ، بل في الخليج العربي والمحيط الهندي ايضا .

ولا أدل على ذلك من أن الوحدة القبائلية في الشمال اســـتطاعت بسهولة أن تكتشف هويتها ـ بصورة عفوية غير قاصدة ـ وأن تعثر على قواها الاحتياطية المساندة .. وان تضع يدها بأيدي أصدقائها الحقيقيين .. فانسجمت بسرعة فائقة .. وفي زمن متقدم نسبيا مع معركة النضال التي قادها الجواسم المناهضة للنفوذ الاستعماري الانكليزي ، رغم بعد الشقة بين منطقة الجواسم ومنطقة عربستان . في حين انها لم تستطع قط ـ ولا بصورة من الصور .. أو ظرف من الظروف ـ أن تنسجم مع مطامع الايرانيين وعنجهيتهم .. رغم قرب عربستان من ايران وملاصقتها لمنطقة نفوذ الشاه .. ولا مع العثمانيين وغيرهم .

الاسطول العربي في الشمال :

استطاع الكعبيون ـ نتيجة تعاونهم مع عرب السواحل في عمان ـ

أن يبنوا لانفسهم أسطولا عربيا ضخما يحمى مناطقهم ، ويعرقل امتداد النفوذ الاجنبي ، بأشكاله الثلاثة : (الانكليزى والايراني والعثماني) في بلادهم زمنا طويلا • ذلك لان الاسطول قد منح القبائل العربية قوة كبيرة •

فمن الامثلة الحية على مدى قوة هذه القبائل ، وعمق انسجامها مع قوى الجنوب •• وضعف القوى الايرانية والعثمانية المتكتلة في مقابلها :

الاميرال والمؤلف الشهير (سيدي علي) الذي كان يخدم في اسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية ، كان قد زار البصرة ، فشاهد ماهو عليه الوالي العثماني (مصطفى باشا) من ضعف ، أمام قوة القبائل العربية وعنوتها ، فصمم على انقاذه من هذه الورطة ـ على زعمه ـ واعانه بخمس سفن حربية انكليزية لمحاربة العرب أعداء الطرفين ، في الأنهر المتفرعة من شط العرب وعربستان ، كما شجعه لتوجيه حملات منظمة ضدهم ، وقد صدع الوالي العثماني (مصطفى) بأمر القائد الانكليزى •• ولكن فشلت الحملات العدوانية بعد ان دفعت عددا كبيرا من رجالها ثمن هذه المغامرة •

ومما ذكره الاميرال (سيدى علي) في مؤلفه •

ان حكم الوالي لم يكن يتعدى خندق مدينة البصرة الا قليلا ، وان سكان الاهوار الجنوبية لم يظهر منهم مايدل على امكانية التعاقد معهم بصورة دائمة لمناعة مواقعهم ولبسالتهم في الدفاع عنها ، بل لم تكن مدينة البصرة ـ بذاتها ـ والتي كانت مركز الولاية لتسلم ، فكانت تهدد كل يوم تقريبا بالغزو •• أو تغذى فعلا ، وتنهب دار الحكومة ودور الموظفين فيها •

استقلال البصرة :

كانت تعديات الاتراك في البصرة تبلغ حد الوحشية أحيانا ••• وكان الموظفون العثمانيون يمثلون فيها دور السادة •• ويعتبرون الرعية عبيدا ، على عادة الاتراك في كل مكان حكموه •• واذا كانت الاماكن الاخرى قد سكنت على تعدياتهم هذه •• فان الروح القبائلية الثورية •• ضد هذه الامور جعلت من الصعب دوام هذا الحال في البصرة •

يقول السائح تافرنيه :
ويؤيده ـ في ذلك ـ ماذكره الشيخ فتح الله الكعبي : في كتابه (زاد المسافر) مايلي :
« انه بلغ الامر في البصرة • ان السكان العرب لم يستطيعوا •• احتمال وجود الحامية الاجنبية في القلعة» •
كانت الحامية تركية طبعا • وكان السكان من العرب الذين تطبع لروح العشائرية حياتهم •• فهم لا يتحملون الاستعباد • بل ان روح الثورة على مثل تلك الاوضاع كانت مجبولة بدمهم • فكان الطرفان في نزاع دائم •• وكان النزاع يتطور ـ في أغلب الاحيان ـ الى معارك في الشوارع • وبما ان الحامية المسلحة أقوى من الشعب الاعزل نسبيا • فان أعراب البادية وأفراد القبائل القاطنة في الاهوار والمحيطة بالبصرة •• كانوا يهبون لنجدة أبناء جنسهم ـ سكان البصرة العرب ، أو لاسعافهم •• وكثيرا ما كانوا يحاصرون الباشا في حصنه •
ولم تكن الحالة لتهدأ بسهولة • وكان الفريقان ، لا يتفقان على شيء•
ومل الوالي (أيوب باشا) هذه الغزوات التي لا نهاية لها • فباع حكومة البصرة الى أحد تجارها المحبوبين من الجمهور •• والذي بادر الى دفع الثمن عن طيب خاطر وهو أربعون ألف قرش ، وتسلم الحكم ، وسمى نفسه أمير البصرة •
وغادر الباشا ولايته ـ بعد ان تمت الصفقة ـ الى القسطنطينية حيث كان ينتظره حبل المشنقة في ساعة وصوله •
لقد ازدهرت البصرة ـ حقا ـ في عهد استقلالها هذا ايما ازدهار • فاتسعت مبانيها وانتعش سكانها اقتصاديا ، وتخلصت من الغارات والفتن وسادها الامن والرخاء وأمها الادباء والعلماء والشعراء •
حتى ان السائح (غودينهو) وصفها بقوله :
« انها أعظم سوق تجارية في هذه البحار » •
ولم يكن استقلال البصرة ـ طبعا ـ الا ثمرة حية ، من ثمرات ذلك الاتحاد القبائلي •• وتلك الروح القومية العفوية التي سادت المنطقة، وساعدتها على تقوية نفسها وعلى بناء أسطول حربي يحمي مسالكها
وعلى توحيد أهدافها ومطامحها مع أهداف ومطامع القبائل الجنوبية في سواحل عمان والتي تدور حول التخلص من حكم الاجنبي واجتثاث جذور النفوذ الانكليزي من المنطقة بكاملها •

معارك الكفاح الاخيرة :

لم تكن قبائل كعب أو الاتحاد القبائلي الشمالي ، ينسون ما تمثله القبائل العربية التي تقطن المنطقة الى جوارهم في الشمال أو الشرق من قوة ٠٠ فكان يتجه هم كعب للتعاون مع بني حمود من قبـــائل المنفق على أسس انها قوة احتياطية في المعارك الحاسمة ٠ وقـــد اشتركت هذه القبيلة عدة مرات مع كعب في قتال الاتراك أو الهجوم على البصرة ٠٠ أو قتال الانكليز والايرانيين ٠

بل وكان كثيرا ما يتفق الحلفاء الاجانب الثلاثة فيبادرون لمهاجمة التحالف القبائلي العربي ، بثلاثة جيوش اثنان بريان بحريان : تركي من الشمال وايراني من الشرق ٠٠ وثالث بحري هو الجيش الانكليزي من الجنوب ٠

ولهذا فقد استمرت المعارك منذ أواسط القرن الثامن عشر بشكل جدي ومتلاحق ولم تخف وطأتها الا بعد قرن من الزمن ٠

ففي سنة ١٧٤٧ كان بنو كعب ، قد بلغوا من القوة درجة أقلقت الدولة العثمانية وزعزعت مراكزها ٠٠ واقتلعت جذور بعضها فعلا ، فكان والي بغداد ، المملوك (سليمان باشا أبو ليلة) يحاول عبثا كسب ولائهم ٠ مثله كمثل الايرانيين ٠٠ ولكن بني كعب كانوا يحتقرون الفريقين الاتراك والفرس ويجانبونهم ٠

وفي سنة ١٧٥٠ كان رئيس بني كعب الشيخ سليمان ٠٠ ذكيا شجاعا نشيطا ، فعزز أسطول القبيلة ، مستفيدا من خبرة عـــرب عمان ومساعدتهم ٠ حتى أصبح الاسطول في سنة ١٧٥٧ يضاهي الاسطول التركي ان لم يفقه ٠

فلما يئس الولاة العثمانيون ، من كسب ولاء كعب ٠٠ أخـــذوا يفكرون باستعمال القوة لاخضاعهم ٠ وفي عهد الوالي العثماني (علي باشا) تحول تفكيرهم هذا الى محاولة عملية ٠ وبما ان الاتراك قد اكتشفوا من التجارب السابقة ضعفهم وعجزهم عن ان يحققوا مطلبا كبيرا كهذا بقواهم الخاصة مع وجود أسطول كعب ٠ طلب الوالي المذكور من المقيم البريطاني معونة جدية ٠٠ مع التعاون المطلق لدحر القبائل العربية ، مشيرا الى اتفاق مصلحة الفريقين ٠ وقد وعد الوالي باسم الحكومة التركية ان يمنح للانكليز في مقابل المعونة امتيازات مهمة ٠ على أساس ان الاسطول البريطاني وحده قادر على دحر الاسطول

الكعبي على ان يساعده الاسطول العثماني في شط العرب وان يتولى الجيش التركي في الوقت ذاته المعارك البريه .

فتم الاتفاق بعد ان شجعت الحكومة الانكليزية هـذه الصفقة . ولكنها اشترطت ان يتم اخضاع قبائل الخزاعل أولا .. ومن ثم يتولى الحلفاء (الاتراك والانكليز) إخضاع الكعبيين .

ووصلت الحملة المتفق عليها . وكانت برية بحرية .. وتقدمت لاخضاع الخزاعل .. تمشيا مع الخطة البريطانية المعروفة التي تقوم على ضرب القبائل الصغيرة أولا .. بضربات قاصمة مخيفة .. ثم التحول لضرب القبائل الكبرى . ان لم تكن الخشية من أمثال تلك الضربات القاصمة السابقة قد أخضعتها قبل وقوعها .

ولكن الحملة العدوانية المشتركة لم تعط ثمارها . بل انكسرت في ربيع ١٧٦٤ أمام صمود الخزاعل وبسالة مقاومتهم . وعاد المهزومون الى قواعدهم يحملون معهم صدى كئيبـــا لاهازيج النصر التي كانت ترددها القبائل العربية الظافرة .

ثم أعيدت الكرة في عهد الوالي الجديد (عمر باشا) ١٧٦٥ ، بعد ان ادخل في الحلف عنصرا جديدا فأصبح حلفا ثلاثيا بعد ان كان ثنائيا . هو العنصر الايراني .

لقد استهوت الحملة ضد كعب بلاط ايران ووجدت فيها الفرصة الذهبية لاعادة النفوذ الايراني لا الى عربســــتان فحسب بل الى سواحل ايران على الخليج العربي . فدبر الوصي على عرش ايران (كريم خان) حملة مشتركة أخرى ضد كعب . تآزر فيها الانكليز والايرانيون والاتراك . فحددوا موعدا لمعركة وتواعدوا على الالتقاء في ميدانهـا بثلاثة جيوش منظمة من الشرق والشمال والجنوب . وحل الموعـد المتفق عليه وقدم الحليفان الفرسي والانكليز .. وتأخـــرت القوات التركيه عن الموعد المضروب قليلا . فلما وصلت وجدت ان الدائرة كانت قد دارت على حليفيها .. وخرجت كعب من المعركة الغـادرة المفاجئة بنصر مؤزر . ونجت بذلك من شر محقق .

ولكن متسلم البصرة التركي لم يقنع بالهزيمـــة . بل قاد رتلا مستقلا من الجيش العثماني من الجانب الايمن للنهر على أمل ان تقضي المفاجأة على معنويات الكعبيين فيستسلمون .. وبذلك يحقق مالم يحققه الجيشان الانكليزي والفارسي . ولكن الشيخ سليمان ــ شيخ

كعب ـ كان أشد ذكاء من الموظف التركي الطموح فعاجله بهجوم صاعق ضعضعه من اللحظة الاولى فولت جماعته الادبار واستولت كعب على ثلاث سفن تركية ·

وكان الشيخ سليمان يدرك ان الحلفاء لن يسكتوا عن هذه الهزائم المهينة فلجأ الى الحيلة في كسب المعركة القادمة ·· باخراج بعض أطرافها أو تجميدهم ·

كان يعرف ان الاتراك حساسين جدا للرشوة ·· فقدم لقادة الفيلق التركي رشوة زهيدة على ان يهادنوه بينما تنتهي المعركة · فقبلوا الرشوة ـ كعادتهم ـ وتخلوا عن المعركة · فاغتنم سليمان الفرصة وبدلا من ان ينتظر قيام العدو بهجومه · بادره هو بالهجوم · فبدأ بالقوات الانكليزية المتجمعة فكسرها واستولى على ثلاث سفن حربية منها احتفظ بها بعد ان سرح ضباطها وضمها الى أسطوله ·

وصعبت الهزيمة على الحكومة الانكليزية في الهند ، فأرسلت أسطولا آخرا أكثر استعداداً وقوة سنة ١٧٦٦ · وتمت الصفقة مرة ثانية بين الحلفاء الثلاثة (الاتراك والايرانيون والانكليز) فتقدم الجيش التركي من الشمال · وتقدم الايرانيون من الشرق وتقدم الاسطول الانكليزي من الجنوب · ولكن العجلة كانت طابع الحملة · فلم تحقق هدفها أيضا · بل كانت النتيجة مفجعة بالنسبة للاتراك والبريطانيين · اذ احترقت سفينتان انكليزيتان وتسع سفن تركية ·

علق لونفريك على هذه الهزيمة بقوله :

« ولم يثأر (الانكليز) لهذا الهجوم الكعبي ·· وتركت الضغينة تتلاشى بالتدريج » ·

ان كعب لم تضعف الا بعد ان تخلفت عن التطور العمي ·· ولم تلحق بالامم التي سبقتها · ومما يدل على استمرار قوة كعب وقوة أسطولها ومدى نفوذه وسيطرته انه ظل يسيطر على الطرق في المنطقة ويفرض على الاساطيل الاجنبية الرسوم ·· حتى انه أسر سفينة تركية سنة ١٧٧٤ وضمها الى أسطوله ·

ولن ننهي هذا الفصل دون ان نناقش كلمة لونفريك عن الثأر ·· والتي أراد بها ان يظهر المستعمرين البريطانيين بمظهر الحلم ·

« ان سكوت بريطانيا عن هذه الهزائم المنكرة ·· لم يكن ليفسره

حلمها كما يزعم لونفريك ، بل تفسره تلك النهضة الصادقة التي عمت شعب عمان العربي في نفس الفترة .. والخطر الجسيم الذي حملته للاستعمار الانكليزي ولنفوذه . فمن المعروف ان الامامة قد أنقذت من السقوط والتضعضع . فتولاها الامام الشجاع أحمد بن سعيد الذي وحد عمان وقضى على التدخل الاجنبي وطرد الفرس وحلفاءهم من البلاد .. حيث كانوا يمثلون مرتكزا طبيعيا للانكليز .. ويحمون طرق مواصلاتهم . واشتدت المقاومة ضدهم في كل مكان . وأغلقت السبل في وجوههم .. حتى بدأ اليأس يدب في نفوسهم وشرعوا يفكرون جديا بالتخلي نهائيا عن المنطقة العربية على حد قول السياسي الانكليزي كرزون .

ومن العجيب ان الاتحاد القبائلي الذي نتولى شرحه كان يتغلب في معظم المعارك على خصومه رغم قوة هؤلاء الخصوم . ورغم تحالفهم .. وشنهم المعارك المشتركة ضده . ولكن مما لا شك فيه ان معونة عمان وسواحلها ومساندة أساطيلها القوية كانت العامل الاول في ذلك التغلب والنصر . وهو الذي يستطيع – وحده – ان يفسر لنا سر صمود القبائل العربية في الشمال .

ففي المعارك العدوانية المدبرة التي شنها العدو ضد الكعبيين بين سنتي ١٨٠٠ – ١٨١٢ مثلا ، استعان الكعبيون بأسطول الجواسم الذي بادر الى نجدتهم رغم عنف الهجمات التي كان يتعرض لها الجواسم في عقر دارهم آنذاك . ورغم انه لم يكن قد مضى على تهديم مينائهم الاول – رأس الخيمة – بضعة سنين .

سياسة التجزئة وتفتيت القوى :

ان السياسة الاستعمارية الوحيدة التي أفلحت في تحطيم شوكة القبائل العربية في الشمال هي ذات السياسة الانكليزية الخبيثة التي خضدت شوكة القبائل في الجنوب فجزأت القوى العربية الموحدة وباعدت بين القبائل المتآزرة المتآخية ومزقت الصفوف الموحدة .. وبعثرت الكتل الجماهيرية الضخمة وفتتتها الى قوى صغيرة ضئيلة القيمة معدومة الاثر .

وليس غريبا – بطبيعة الحال – ان نجد المشيخات والدويلات الصغيرة – اليوم – تنتشر على طول سواحل الخليج العربي وعمان .. كحبات الفسيفساء (الموزاييك) . كل مشيخة منها .. تعادي الاخرى

وتطمع في ان توسع حدودها على حساب المشيخات المجاورة .. مع ان رقاب الجميع مربوطة الى حبل واحد .

فبعد ان تحطمت قوة الجواسم ، ودمر الانكليز أسطولهم بصورة تدريجية . وهدموا موانئهم . وأجبروهم على توقيع معاهدة ١٨٢٠ مرغمين . مزقوا بلادهم الى مشيخات سبع . وحرصوا على ابراز زعامات جديدة فيها . يحمونها بنفوذهم وأسلحتهم ويجرون عليها الرزق ويفصمون بينها وبين شعبها . فتشعر بأنهم أولياء نعمتها وعلة وجودها . وهكذا يكون الانكليز قد وضعوا كل زعيم من هؤلاء الزعماء الاقزام ، في وضع لا يستطيع فيه حتى ان يفتح عينيه في وجه أسياده بله الثورة عليهم ، حتى ولو أراد ذلك . فبلده ضيق صغير قاحل لا تجارة ولا زراعة ولا صناعة ولا مورد له . يعيش فيه بضعة آلاف من الجهلة والمرضى على الكفاف . معدوم النفوذ حتى على هؤلاء . مكبل بقيود المعاهدات . تجره عجلة الاستعمار التى تدور فوق جسده وتسحق مصالحه ومصالح بنده في جملة ما تسحق .

وكنتيجة للعداء والتخاصم والطمع والخوف ، هذه السموم التى نفثتها (الحية العجوز) بريطانيا بين صفوفهم . تحول الواحد منهم الى وحش مفترس بالنسبة لاخوانه في حين انه كلب طيع سلس القياد في يد أى موظف بريطاني تافه .

هكذا انفصلت المشيخات والامارات .. الى قطع صغيرة كقطع الشطرنج تتلاعب بها اليد المستعمرة .. كيفما تهوى وتشاء .. وتضعها حيثما تريد .. موهمة اياها انها دولا .. كباقي الدول منفصلة عن الوطن .. منفصلة عن العالم الخارجي .. وعن عالمها العربي . مستقلة عن كل انسان الا عن بريطانيا .

هذه هي السياسة الاستعمارية التي تميزت بها بريطانيا في كل زمان ومكان .. الا وهي سياسة تمزيق المنطقة والحيلولة دون اتحادها . وهي نفس السياسة التى طبقت في جميع سواحل الخليج .. بل وبنسبة مختلفة في فلسطين والاردن والعراق .. ألا وهي سياسة تمزيق المنطقة والحيلولة دون تقارب أجزائها .. أو اتحادها .

ان هذه السياسة تفسر لنا لماذا لم تقف انكلترا الى جانب عملائها

ـ سلاطين مسقط ـ حينما أرادوا مد نفوذهم الى الخليج العربي ·· وتحقيق بعض المطامع التوسعية الشخصية · بل عملت ، حتى على تمزيق امبراطوريتهم · فقسمتها الى قسمين : مسقط وزنجبار · لنفس الغرض ·· الا وهو أضعف المنطقة وتشتيت شملها ·

وإذا كان التاريخ لم يسجل ـ بعد ذلك ـ وقوع اضطرابات بحرية خطيرة ، في المنطقة كالسابق · فمرد ذلك الى ان قوة المشايخ قد تلاشت واضطر أكثرهم نتيجة المضايقات الانكليزية والمصادرات والغرامات التي ببيع سفنهم الباقية ومراكبهم الصغيرة الى الهنود الذين ساعدهم الانكليز للحلول محل العرب في تجارة الموانيء الصغيرة ·

وصارت السواحل العربية ـ هذه ـ الى حال من الفقر جعلت شيوخها يلجأون الى استجداء الادارة البريطانية ، لتجود عليهم بمرتبات شهرية حقيرة ، وأصبحوا مرتزقة لدى حكومة الهند الانكليزية ·

ان سياسة شراء الشيوخ والامراء ·· ظلت ـ حتى اليوم ـ من الاساليب الانكليزية الشديدة الرواج · والمستعملة ـ كوسيلة من وسائل حماية المصالح الاستعمارية ، في المناطق الشديدة الحساسية ·

والحقيقة التي لا مراء فيها ، ان الاستعمار الانكليزي ، قد استفاد من هذه السياسة كثيرا جدا ·· ومن الفوائد التي جناها انه لم يصطدم ـ بعد ذلك ـ بمعارضة حربية جدية تذكر · اللهم الا في عمان الداخلية التي ظلت أمينة على تقاليد الامامة وثورية النضال ·

والسبب في خمود الباقين وانطفاء نارهم ، ان اعطيات الانكليز كانت تملأ ـ باستمرار ـ حلوق هؤلاء السادة ، من القادة والامراء والشيوخ ، فتمنعهم عن الكلام ·· بنه الاحتجاج أو الثورة · وتحولهم الى أجراء رخاص مهمتهم حراسة المصالح الانكليزية لا الثورة عليها ·

وقد أدرك الانكليز ـ مدى الفوائد التي يجنونها ، من هذه السياسة ·· فأغدقوا ·· وقرروا منح المرتبات للجميع ، بدون استثناء ·· ولا تلكؤ · فأصاب منها الكبير والصغير ·· من مشايخ عجمان الصغيرة ودبي ··· الى سلاطين نجد !!

كل يتناول المرتب الذي يتناسب مع أهمية منطقته ·· ويتكافأ مع نفوذه الشخصي ·· ومكانته في عيون رعاياه ··

الفصل الخامس عشر

التدخل الانكليزي في القرنين الاخيرين

رأينا في الفصول السابقة ، ان علاقات الانكليز بالسواحل العربية ، كانت ـ قبل وصول سلاطين البوسعيد الى الحكم ـ علاقات بسيطة عابرة وشفهية • ولم يكن أي حاكم عربي قد ارتبط بانكلترا بعقد مكتوب قبل أن فعل ذلك سلطان بن أحمد •

كان الانكليز في الفترة الاولى يعبرون على هذا المرفأ أو ذاك ، أو يدافعون عن سفنهم في عرض البحر • أو يهاجمون بها السفن الاخرى ، دون أن يكون هناك ـ ثمة قواعد أو قوانين دولية تحدد سلوكهم •

وكان الحكم في عمان ـ آنذاك ـ في أيدي أئمة أو أمراء محليين يعتمد معظمهم على تأييد الشعب الذي يحكمونه ، ويرتبط بالارض • وظل الامر كذلك حتى توفي الامام البوسعيدي الاول أحمد بن سعيد الذي لم يكن حكمه ليقوم لولا تأييد الشعب لبطولته في طرد الاجنبي من أرض عمان •

ولكن تغير الحال بعد فترة قصيرة من موته ، فانقسمت عمان الى قسمين :

قسم ساحلي مركزه مسقط يحكمه سلاطين البوسعيد •

وقسم داخلي مركزه الرستاق أو نزوى يحكمه اما أئمة منتخبون من الشعب ، أو أمراء يمثلون القبائل شبه المستقلة •

وبينما استطاع القسم الداخلي أن يحمي استقلاله ،وأن يحول دون تغلغل النفوذ الاجنبي اليه • فان المنطقة الساحليه (مسقط وتوابعها) استسلمت للاجنبي بدون قيد ولا شرط ، وربطت نفسها بمعاهدة واتفاقيات كلها تدور حول تثبيت النفوذ الاجنبي ، والنيل من استقلال مسقط وكرامتها ، وتكبيلها بالقيود المهينة • وتجديد هذه الاتفاقيات بين فترة وأخرى .لاضافة قيود جديدة على القيود السابقة •

لقد بدأ هذا التغلغل في مسقط على أيام سلطان بن أحمد الذي

انصرف الى القضايا الدنيوية بكليته ، ولم يعر الامامة أى التفات ٠٠ ومنذ عهد سلطان لم يحاول الحكام المنحدرون من عائلتــه ان يظفروا بتأييد دينى أو شعبى لحكمهم ، وقنعوا بالاعتماد على ما لعائلاتهم من هيبة وسلطان في المرحلة الاولى ٠٠ ثم اعتمدوا ـ فى المرحلة الثانية ـ على عمليات البطش والارهاب من جهة وعلى تأييد حلفائهم الانكليز من الجهة الاخرى ٠

فاذا ما عوتبوا في ذلك أو انتقدوا ، اتخذوا من الخطر الارهــابى حجة لتبرير سياستهم الممالئة للاستعمار والمستعمرين ٠

كان الوهابيون (الموحدون) يملكون نفوذا كبيرا بين قبــائل الجواسم وبنى بوعلى ٠ وكانت حروب الوهابيين وغاراتهم لا تنقطــع فعلا ٠٠ وكانت القبائل المناهضة للانكليز فى سواحل عمان تعتمد على سند الوهابيين لها عند الشدة ٠ دون أن يكون لذلك سند من الحقيقة ٠

فاتخذ سلاطين مسقط من غارات الوهابيين ومن مناهضة القبائل للنفــوذ الانكليزى حجة لارتمائهم فى أحضان المستعمرين ٠ وقــد شجعهم الانكليز على هذا السلوك ٠ وأخذوا ـ بدورهم ـ يرجفون أكثر فأكثر عن الخطر الوهابى ٠٠ وعن ٠٠ تحــريض الوهابيين للقبائل العربية الساحلية ضد الانكليز ليزيدوا من ارتباط حـكام مسقط بهم ، وايهامهم ان لا نجاة لهم الا بالاعتماد على حماية الاسطول الانكليزى ٠

مع ان الوثائق التاريخية (الانكليزية والوهابية) تجمع على خلاف ذلك ـ فالانكليز كانوا يحرصون على عدم المساس بهم أو التحرش بمن يمثل مصالحهم ٠٠ والوهابيــــون كانوا ـ فى مقابل ذلك لا يتعرضون للمصالح الانكليزية أو لمن وضعوا أنفسهم تحت حمــاية الانكليز ٠

واليك أيها القارىء الوثيقتين التاليتين لايضاح هذه الحقيقة :

وقد أصر سلاطين البوسعيد على السير فى هذه السياسة الخانعة، ولم يحاولوا الرجوع عنها ٠ فظلوا يبتعدون عن الشعب ، ممعنين فى توطيد علاقاتهم بالاجنبى ، منشغلين باستغلال أملاكهم فى زنجبار وشرق أفريقيا ٠ تحت حماية النفوذ الانكليزى وباشراف منه ٠

كان سلاطين البوسعيد يملكون أسطولا ضخما ، بالنسبة لتلك

الفترة . ولكن أسطولهم لم يكن حر الارادة . ولهذا لم يكن ليحوز اعجاب عرب عمان الغاضبين على خنوع أصحابه . بل على العكس كانوا ينقمون على استخدام البوسعيد لهذا الاسطول ضدهم . فالحملات الرئيسية التى اشتركت فيها الى جانب الانكليز أسقطت هيبتهم وهيبة أسطولهم بدلا من رفعها . ولم يكتفوا بالعلاقات الشفهية القديمة فحولوا هذه العلاقات الى اتفاقية مكتوبة مع الانكليز . فى عهد سلطان ابن أحمد سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م .

وفى عام ١٨٠٠ وافق سلطان على تعيين أول مقيم بريطاني في مسقط وعدلت اتفاقية ١٧٩٨ بما يتفق مع ذلك .

وفى عام ١٨٢٢ عقد بين الفريقين معاهدة تتعلق بمنع تجارة الرقيق . على غرار المعاهدات التى فرضتها انكلترا على مشيخات ساحل الهدنة وامارات سواحل الخليج العربي .

وفى عام ١٨٣٩ وقع سعيد مع بريطانيا معاهدة تجارية جاء فى نصوصها :

« ان رعايا صاحبة الجلالة البريطانية يمنحون الحرية الكاملة فى الدخول والاقامة والمتاجرة والمرور مع بضائعهم فى جميع أراضى (عظمة) سلطان مسقط » .

وقد وضع هذا النص خصيصا لاحراج زعماء الداخل الذين أغلقوا عمان الداخلية فى وجوه الاجانب .

وفى عام ١٨٥٤ . أى قبيل وفاة سعيد ، تنازل ـ بدون مقابل ـ للملكة فكتوريا ، عن جزائر (قوريا موريا) الواقعة أمام الساحل الجنوبي الشرقى لعمان ، لتصبح ملكا خالصا لها ولورثتها أو لمن يخلفها .

وقد أدركت بريطانيا عمق صلاتها بمسقط ومدى الخدمات التى كان يقدمها سلاطينها لها . فدافعت عنهم ، وحافظت عليهم محافظتها على نور عينيها ، لكي تستطيع استخدامهم فى كل لحظة فى تحقيق أغراضها الاستعمارية . حتى انها وضعت قواتها المسلحة وأسطولها الحربى فى المحيط الهندى ضد أعداء سلاطين مسقط .

ولولا هذا التدخل الانكليزى المباشر لوقعت مسقط فى أيدى شعب عمان بسهولة ولسقط معها حكم السلاطين الخونة ، الذين فقدوا كل هيبة واعتبار حتى فى نفوس أتباعهم .

وفي عام ١٨٥٦ توفى سعيد بن سلطان فاغتنم الانكليز الفرصة وأشاروا على أبنائه باقتسام السلطنة بينهم ٠

وانقسمت الامبراطورية الواسعة القوية بناء على هذه التوصية الخبيثة ٠٠ وتم اضعافها بدون ضجة وتحويلها الى امارتين صغيرتين متباعدتين متعاديتين ٠ تمشيا مع سياســـة التفرقة والتمزيق التى سارت عليها انكلترا مع أعدائها ومع أصدقائها بدون تفريق ٠

أما القسم الاول فقد شمل مسقط وتوابعها على سواحل عمان ٠ وتولى الحكم فيه توينى بن سعيد ٠

والقسم الثاني شمل زنجبار والممتلكات الافريقية وتولى الحكم فيه ماجد بن سعيد ٠

كان الانكليز لا يطمئنون الى مسقط وهي دولة كبيرة غنية ذات تجارة وأساطيل ٠ حتى ولو كانت خاضعة لهم ٠ فالخضوع يتطلب الضعف والفقر والتوكل ٠٠ وهذه صفات لا تتوفر فى دولة واسعة غنية ٠ اذ قد يتاح لها زعيما وطنيا صادق الوطنية يستولى على الحكم ويقضى على النفوذ الانكليزى ٠ فكان لا بد اذا من ازالة أسباب القوة ٠٠ والقضاء على الغنى واحلال الفقر والضعف والفرقة مكانه ٠ وبذلك يأمن الانكليز أحداث المستقبل المحتملة ٠ فوجهوا همهم لتمزيقها ٠ فلما تم لهم ذلك بموت سعيد ٠ أثاروا المشاحنات والخلافات بين شطرى العائلة فى (زنجبار ومسقط) فأتيح لهم بسط نفوذهم على الشطرين ٠

ولما اشتد النزاع بين الاخوين ، عرض خلافهم على اللورد (كاينج) نائب الملك فى الهند ليكون حكما ٠ فاصدر حكمه فى عام ١٨٦١ الذى قضى بتثبيت الانقسام وابقاء كل أخ مكانه . ولكنه فرض على ماجد أن يدفع الى توينى حاكم مسقط اعانة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال ٠ فدفع ماجـــد المبلغ عدة سنوات ثم توقف ٠ فتعهدت الحـــكومة الانكليزية بدفع المبلغ بدلا عن ماجد من ميزانيتها الخاصة ٠ وذلك تقوية لتركى ضد الامامة ٠

هذا من جهة ٠ أما من الجهة الاخرى فقـــد أرث الانكليز النزاع الداخلى فى قلب عائلة توينى فى مسقط فكثر الطامعون بالعـــرش ونشبت الحروب والمعارك بين الاخـوة والاقارب ٠٠ وكان كل منهم يرجع الى الانكليز ليحصل منهم على العون الذى يمكنه من الوصول الى

الحكم فحصل الجميع على تأييد انكلترا ومباركتها .. في وقت واحد .

وفي أثناء ذلك كان شعب عمان قد تمكن من بعث الامامة وانتخاب أمام شجاع هو عزان بن قيس فى عام ١٨٦٨ . فأثار بعث الامامة خوف بريطانيا فوقفت منذ اللحظة الاولى ضدها . ورغم انها تظاهرت بعدم التدخل فانها لجأت الى الدسائس ضد الامامة وألبت عليهــــا أعداءها . وزودتهم بالمال والسلاح . ولم تكتف بذلك فشاركت تركى فى الهجوم على الساحل ، حتى تغلب على الامام .

ولولا مساعدة انكلترا لتركي بعد تغلبه على الامام ، لما تيسر له ان يحتفظ بالمركز الذى ظفر به . فقد منحه الانكليز مساعدة سنوية وفق منحة كانيفغ . وأبدوا استعدادهم لمده بالمعونة العسكرية ضد قوات عمان الداخلية . وتدخل المركب البريطانى (تيزر) فى عام ١٨٧٧ للدفاع عن مدينة مسقط فضرب مهاجميها بمدافعه وردهم عن مسقط . وأعلنت الحكومة الانكليزية عن عزمها الدائم على الدفاع عن مدينة مسقط ، ولو اضطرت لاستخدام قواتها المسلحة أو أسطولها وذلك في عام ١٨٨٦ .

وقد اغتنمت بريطانيا فترة الاضطراب والتجزئة التي شرحتها قبل قليل ففرضت على مسقط عدة اتفاقيات جديدة منها :

١ ــ اتفاقية مد الاسلاك البرقية ، عقدت فى سنة ١٨٦٤ وبوشر بالعمل فيها فعلا .

٢ ــ اتفاقيه ثانية لمد الاسلاك البرقيه عقدت في سنه ١٨٦٥ وسعت حقوق بريطانيا السابقة .

٣ ــ معاهدة بالغاء تجارة الرقيق نهائيا . عقدت فى سنة ١٨٧٣ مع تركى واشترطت فيها عليه ان يسمح لانكلترا باقامة ثلة من الجند فى دار وكالتها فى مسقط .

ولم تتوقف بريطانيا عن فرض معاهداتها واتفاقياتها بعدئذ .. فكلما جد حدث جديد ، أو ظهر للانكليز مصلحة ما .. فرضوا على السلاطين العقود التى تضمن لهم ذلك .

ففي سنة ١٨٩١ عقد الانكليز مع مسقط معاهدة تجارة وملاحـــة وصداقة . تعهد السلطان فيها : ان لا يمنع توريد أو تصدير أى نوع من المواد التجارية ، وان لا يضع الرسوم الجمركية الا بموافقتهم .

كما تضمنت المعاهدة النص التالى :

« يستمتع رعايا صاحبة الجلالة البريطانية ـ فيما يتعلق بأشخاصهم وممتلكاتهم ـ في داخل أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط بامتيازات خارج النطاق » .

« لقد حلت هذه المعاهدة محل معاهدة ١٨٣٩ . وبعد توقيع المعاهدة بيوم واحد ، وقع السلطان تعهدا وحيد الطرف مؤداه :

« انه ـ أي السلطان ـ يأخذ عهدا على نفسه وعلى خلفائه وذريته، بأن لا يتنازلوا عن أي جزء من أراضي امارتهم ولا يؤجرونه أو يبيعونه أو يأذنون باحتلاله لأحد غير بريطانيا العظمى » .

وهكذا نجد ان سلاطين مسقط لم يدخروا وسعا في ارضاء المستعمرين الانكليز الا ونفذوه دون أن يلتفتوا الى مشاعر سكان عمان .. ولا الى مصالح شعبهم . فكان هذا السلوك منهم يدفع المخلصين دائما للتخلص منهم وتحرير مسقط وعمان من شرورهم .

اعلان الانكليز حمايتهم على مسقط :

حاول شيوخ عمان وكبار قادتها في مناسبات متعددة تحرير عمان ، ومحو آثار الذل والهوان التي فرضها سلاطين مسقط عليها، بالاستيلاء على مسقط وطرد السلاطين منها . وكان رؤساء العشائر الكبرى على رأس هؤلاء القادة . وخاصة عشائر الشرقية . وقد برز من بين هؤلاء الشيخ صالح الحارثي وولده ابراهيم الذي أظهر بسالة فائقة رغم انه لم يكن قد تجاوز العشرين ، فاحتل مسقط ودخل قصر السلطان .. وكاد يخلص عمان من طاغيتها . وذلك في مدى عام واحد .

ولكن التدخل الاجنبي حال دون اتمام هذه المهمة الوطنية الخطيرة . وقد ساعد على ذلك بقايا الخلافات القبلية التي كانت ما تزال تفرق الشعب العربي في عمان . فتم الصلح مع سلطان مسقط .. وفك الحصار عنها .

ان حصار مسقط .. وعنف المعارك التي دارت في شوارعها .. واستبسال شعب عمان من أجل تحريرها . كشف للانكليز مدى الخطر الذي يحدق بها . فقد برهنت الحوادث الاخيرة على ضعف السلاطين وعجزهم عن حماية مسقط .

وكان الانكليز قد اتخذوا من مدينتي مسقط ومطرح المتجاورتين مركزا أساسيا لحكمهم .. وحولوا المدينتين الى قاعدة حربية ينتشر

منها تدخلهم وعدوانهم .. فخافوا من ان تتكرر حوادث مهاجمتها أو محاصرتها أو اسقاطها .

وكان الشيخ صالح الحارثي قد توفي .. وكان قد سبقه ولده البطل ابراهيم فتوفي أيضا في نفس العام .. وبوفاتهما تضعضعت قوى العشائر في الشرقية نسبيا ، وسنحت الفرصة الذهبية كي ينفذ الانكليز فيها عدوانا جديدا بدون اثارة أية ضجة ، معلنة حمايتها لمسقط ومطرح مع عزمها على عدم السماح لأحد أيا كان بمهاجمتهما أو احتلالهما .

كانت بريطانيا قد نالت من حكام مسقط كل ما تريده من امتيازات، بل استطاعت ان تفرض على السلطنة ما تشاء بدون اعتراض . حتى انها استطاعت ان توصل الى الحكم .. الشخص الذي تتوسم فيه استعدادا أكبر للخنوع . فلم يعد من مصلحتها ـ والحالة هذه ـ ان يسقط هؤلاء الحكام وان تزول حكومتهم المتعاونة . فجددوا في عام ١٨٩٥ عهدهم الاول الذي أعلنوا عنه ـ بصورة غير مباشرة ـ في عام ١٨٨٦ . ولكنهم حرصوا في هذه المرة ان يتخذ صفة رسمية .. وان يحوز على المشروعية . فأوعزوا الى سلطان مسقط ذاته . ان يذيع خبر الحماية . وان يبلغ كبار شيوخ القبائل قرار الحكومة الانكليزية بصدد ذلك .

والقرار صريح واضح لا يحتاج الى شرح .. فهو قد تخلى عن المقدمات المعتادة والديباجات الكاذبة . فأتى في بضع كلمات عما يريده الاستعمار وكفى الله المؤمنين القتال .

القرار :

« بالنظر لما لبريطانيا من مصالح جوهرية في مدينتي مسقط ومطرح فانها لن تسمح للشيوخ بمهاجمة هاتين المدينتين مهما كانت الخلافات القائمة بين أولئك الشيوخ والسلطان » .

قرار الحماية وبيان باريس :

كانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا قد دفعت بالدولتين في سنة ١٨٦٢ للنزاع حول بعض الحقوق في مياه مسقط وزنجبار .. ولا سيما حق السفن غير الفرنسية برفع العلم الفرنسي .. فعمد الانكليز على اجراء اتفاق مباشر مع الفرنسيين واعلان استقلال المنطقة وذلك لتخفيف حدة التوتر . ولكي يتاح لهم الاستئثار بحكم المنطقة دون

تدخل أحد ‥ عن طريق المعاهدات والاتفاقيات ‥ فاعلنوا ان البلاد العربية المتنازع على مياهها مستقلة ‥ وان لا شأن لأي من الدولتين (فرنسا وانكلترا) بها . وان حكومتي زنجبار ومسقط حكومتان حرتان في تصرفاتهما . فقبل الفرنسيون بهـــذا الحل ‥ ولكنهم اشترطوا ان يضمن الفريقان هذا الاستقلال بنص مكتوب .

وهكذا صدر ما يسمى (بيان باريس) في عام ١٨٦٢ . الذي تعهد فيه الفرنسيون والانكليز : على احترام استقلال سلطان مسقط وسلطان زنجبار .

واستنادا على هذا البيان منح فيصـــل بن تركي للفرنسيين حق انشاء مرفأ لهم على ساحل مسقط لاستخدامه في شحن الفحم .

ولما كان منح مثل هذا الامتياز للفرنسيين يمس مصالح انكلتـــرا الاستعمارية في المنطقة . جاءوا الى فيصل وأخذوا يهددونه باستخدام القوة ‥ فألغى المنحة فورا . فعاد النزاع بين الدولتين ، وسمحت فرنسا لنفسها بان تتصل بمختلف المتنفذين في مسقط ‥ وزنجبار وساهمت في تهريب الاسلحة الى القبائل ، الامر الذي اضطر الدولتين لعقد عدة اتفاقيات . كما اضطرهما لرفع الخلاف الى محكمة دوليـــة دائمة في عام ١٩٠٥ .

فلما خاف اللورد كرزون ــ الداهية الانكليزي ونائب الملك في الهند ــ من خطر المنافسة الفرنسية وتضاؤل هيبة انكلترا في الخليج العربي عين ضابطا من ضباطه الموثوقين وكيلا سياسيا في مسقط هو السر (برسي كوكس) الاستعماري والدبلوماسي المشهور مزودا اياه ــ قبل سفره ــ بالنصيحة التالية التي تكشف عن حقيقةموقف الانكليز من حكام مسقط .

« دع السلطان يفهم ان كل اعتبار من اعتبارات السياسةوالروية والخبرة الماضية وآمال المستقبل ، تكرهه على أن يظل الى جانبنا . ولكن الواجب عليه ان يسلم بان مصالحه مرتبطة بمدى ولائه لبريطانيا العظمى » .

فعمل كوكس بموجب هذه النصيحة خلال السنوات الخمس التي قضاها في مسقط ، وذلك في سبيل تثبيت السياسة الانكليزية في الخليج ومسقط بالشكل الذي أراده اللورد كرزون ‥ والذي قال موضحا هذه السياسة :

« اننا نمد حاكمها (مسقط) بالاعانة ، ونملي سياستها ، ولهذا فعلينا ان لا نسمح بأى تدخل أجنبي في شئونها » .

كما ألقى اللورد لانزداون - وزير خارجية انكلترا في ٥ مايو ١٩٠٣ خطابا قال فيه :

« يجب ان نعتبر ان انشاء قاعدة بحرية أو ميناء محصنا في الخليج، من جانب أية دولة أجنبية أخرى، تهديدا خطيرا لمصالح البريطانية، وبكل تأكيد يجب أن نقاومه بجميع الوسائل التي تحت تصرفنا » .

ولم تتبدل هذه السياسة الانكليزية فيما بعد ، بل تعززت في نفس الاتجاه بالنسبة لسلاطين مسقط وبالنسبة لمشايخ السواحل الخاضعة لبريطانيا .

فقد كتب اللورد كوزن عن سلطان مسقط بمناسبة الرحلة التي قام بها الاول الى الساحل العربي في عمان والخليج في عام ١٩٠٣ ما يلي :

« سلك صاحب العظمة السلطان في هذه المناسبات جميعا مسلك البساطة والوقار ، وكان مسلكه مسلك تابع موال للحكومة البريطانية، لا مسلك حاكم مستقل . ان الموقف وما أحاط به ، بدا انه كان كافيا - في نظر السلطان لان يقنعه بالاعتماد على صداقتنا ، وبالوقوف موقف الاذعان لرغبتنا » .

وهكذا نجد ان الانكليز حينما أعلنوا بيان باريس لم يكونوا جادين ولا صادقين . وهم في حقيقة أمرهم يحتقرون سلاطين مسقط .. ولا يستنكفون عن اهانتهم والتعريض بخنوعهم وذلهم . ولم يكونوا راغبين قط في احترام استقلال مسقط أو زنجبار ، وانما كان عملهم مجرد تدبير مؤقت ، أملته ظروف المنافسة القائمة بينهم وبين فرنسا . ولم يكن الانكليز ينظرون الى مسقط وحكامها الا على أساس أنهم مجرد أتباع يدورون في فلك السياسة البريطانية ، ويخدمون مصالحها .

الفصل السادس عشر
محصلة الاستعمار الانكليزي في مسقط وعمان
فلسفته . نهجه . اساليبه . منجزاته الخططية

بعد أن شرحنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، دور الاستعمار الانكليزي وأعماله ، في الخليج العربي وعمان ، خلال قرنين ونصف من الزمن . أصبح لزاما علينا أن نجمل - في هذا الفصل -

« اننا نمد حاكمها (مسقط) بالاعانة ، ونملى سياستها ، ولهذا فعلينا ان لا نسمح بأى تدخل أجنبي في شئونها » .

كما ألقى اللورد لانزداون – وزير خارجية انكلترا فى ٥ مايو ١٩٠٣ خطابا قال فيه :

« يجب ان نعتبر ان انشاء قاعدة بحرية او ميناء محصنا في الخليج، من جانب أية دولة أجنبية أخرى، تهديدا خطيرا لمصالح البريطانية، وبكل تأكيد يجب أن نقاومه بجميع الوسائل التى تحت تصرفنا » .

ولم تتبدل هذه السياسة الانكليزية فيه شعرة ، بل تعززت فى نفس الاتجاه بالنسبة لسلاطين مسقط وبالنسبة لمشايخ السواحل الخاضعة لبريطانيا .

فقد كتب اللورد كوزرن عن سلطان مسقط بمناسبة الرحلة التى قام بها الاول الى الساحل العربى فى عمان والخليج فى عام ١٩٠٣ ما يلى :

« سلك صاحب العظمة السلطان فى هذه المناسبات جميعا مسلك البساطة والوقار ، وكان مسلكه مسلك تابع موال للحكومة البريطانية، لا مسلك حاكم مستقل . ان الموقف وما أحاط به ، بدا انه كان كافيا – فى نظر السلطان لان يقنعه بالاعتماد على صداقتنا ، وبالوقوف موقف الاذعان لرغبتنا » .

وهكذا نجد ان الانكليز حينما أعلنوا بيان باريس لم يكونوا جادين ولا صادقين . وهم فى حقيقة أمرهم يحتقرون سلاطين مسقط .. ولا يستنكفون عن اهانتهم والتعريض بخنوعهم وذلهم . ولم يكونوا راغبين قط فى احترام استقلال مسقط أو زنجبار ، وانما كان عملهم مجرد تدبير مؤقت ، أملته ظروف المنافسة القائمة بينهم وبين فرنسا . ولم يكن الانكليز ينظرون الى مسقط وحكامها الا على أساس أنهم مجرد أتباع يدورون فى فلك السياسة البريطانية ، ويخدمون مصالحها .

الفصل السادس عشر
محصلة الاستعمار الانكليزى فى مسقط وعمان
فلسفته . نهجه . اساليبه . منجزاته الخططية

بعد أن شرحنا فى الفصول السابقة من هذا الكتاب ، دور الاستعمار الانكليزى وأعماله ، فى الخليج العربى وعمان ، خلال قرنين ونصف من الزمن . أصبح لزاما علينا أن نجمل – فى هذا الفصل –

محصلة تلك الفترة الطويلة ، من الآلام والشقاء ٠٠ وان نكشف عن روح السياسة الاستعمارية ، وعن فلسفة الانكليز الخاصة في تنفيذها ٠٠ أقول فلسفة الانكليز ٠٠ فلا تستغرب أيها القارئ كلمة فلسفة هنا ، فالانكليز قد فلسفوا خططهم الاستعمارية الخبيثة ، ووضعوا لها القواعد والقوانين ٠ وأخضعوها للعلوم الانسانية (السيكولوجية) ، حتى يسهل عليهم خداع الشعوب الساذجة وحكمها ٠٠ من جهة ٠٠ وحتى يسهل على الشعوب المحكومة أو المخدوعة ازدرادها من الجهة الاخرى ٠٠

وليس قولنا ـ هذا ـ جديدا ، بل انه قديم ، قدم الاستعمار الانكليزي ٠ فكثيرا ما نسمع عن خبث الانكليز ٠٠ وحدة ذكائهم الاستعماري ، ولؤم خططهم ، وبعد نظرهم ، حتى بلغ الامر ببعض من اكتوى بنارهم أن رأى شبحهم يطل من وراء كل مشكلة عالمية أو فتنة أو حرب ٠

فهل كانوا كذلك في بلاد العرب ؟

أم انتهجوا سياسة خاصة بالنسبة لهذا الجزء من العالم ؟ ووضعوا ـ له ـ فلسفة استعمارية قائمة بذاتها ، تختلف عن مجمل فلسفتهم الاستعمارية في البلاد الاخرى ؟٠٠

ذلك : ما سنحاول بيانه ـ بقدر ما نستطيعه من الايضاح ـ في النقاط الدقيقة المحددة التالية :

اولا : أسطورة حماية الامبراطورية :

اتخذت بريطانيا من أسطورة حماية الامبراطورية هدفا قائما بذاته ـ لا وسيلة ـ وجعلت من ذلك سببا أساسيا لوجودها في بلاد الشرق وخاصة في المناطق المحيطة بالهند ٠ فاحتلت كل ما يشرف على طرق المواصلات المؤدية اليها ٠ كما احتلت النقاط العسكرية المهمة حتى لو كان اتصالها بهذه الطرق اتصالا غير مباشر ٠ كما فرضت سيطرتها على معظم البحار المؤدية الى الهند مع ما فيها من مضائق وخلجان وجزر وأشباه جزر ورؤوس ٠ ولم تهتم بتبرير خططها ٠٠ بغير حكاية أهميتها لحماية طرق الامبراطورية ٠ بل كانت تستبيح جميع المبررات غير المشروعة للوصول الى هذا الغرض ٠

وبلغ ببريطانيا (الهوس الاستعماري) أن حولت (مبدأ حماية الامبراطورية) الى عقيدة وفلسفة يعتنقها الشعب الانكليزي ويدافع

عنها • وتخصص للتبشير بهذه الفلسفة قسس ومبشرون وكتاب وشعراء •• جعلوا همهم الدفاع عنها وتبرير أعمالها • بل لقد اتخذت من هذا الشعار مصدرا لجمع القيم السياسية ، وفرضت على موظفيها (انكليز وغير انكليز) أن يسيروا وفق مقتضياته الزمانية والمكانية ، ولم يراعوا مبدأ اخلاقيا ولا احترموا قيمة انسانية أو اجتماعية مهما كان لهذا المبدأ أو لتلك القيمة من قدسية أو احترام في النفوس •

ولئن كانت المنطقة التي وجهوا أنظارهم اليها ضيقة ـ في أول الامر ـ فانها كانت تتسع مع الزمن وتشمل أماكن كثيرة البعد عن الهند • لقد انتبهوا الى كل ما كان يدور في خلد أعدائهم من احتمالات لغزو الامبراطورية البريطانية فهبوا الى ما فيها من ثغرات وسدوها •

لقد نبهتهم خطط نابليون ـ مثلا ـ الى ضرورة احتلال مناطق وبلاد لم تكن لتخطر لهم على بال ، فهرعوا اليها واحتلوها •

وكانت السياسة التي رسمها نابليون بعد احتلاله لمصر في عام ١٧٩٨ تهدف الى غزو الهند وضرب المصالح الانكليزية فيها • وعين نابليون ثلاث طرق لتنفيذ الخطة • هي طريق هرات البرى أو طريق الفرات والخليج العربى أو طريق البحر الاحمر •

فما أن علم الانكليز بهذه الخطط •• وبالمنافذ التي افترض نابليون ان يهاجم الهند من احدها حتى وجهوا كل امكانياتهم للقبض على هذه المنافذ وبسط سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة عليها •

أما البحر الاحمر فقد سيطر الانكليز عليه بالاستيلاء على مالطة وقبرص والسودان وعدن والنواحى التسع المحمية وسواحل العرب الجنوبية والجزر القريبة منها •

وأما طريق هرات البرى فقد أغلقه الانكليز في وجه العدو بضم بلوجستان الى الهند وتوطيد نفوذهم مؤقتا في أفغانستان والنصف الجنوبى من بلاد فارس •

وأما الخليج العربى فقد كان سببا في بذل جهود كبيرة ومنافسة استعمارية طويلة ضارية لم تتوقف حتى تم احتلال الانكليز للعراق والسيطرة على سواحل الخليج العربى وعلى سواحل عمان •

ثانيا ـ مرونة السياسة الانكليزية وتلونها :

لقد كيف المستعمرون نظام حكمهم في ممتلكاتهم ، وفي البلاد التي

امتد اليها نفوذهم ، كسواحل عمان والخليج العربى ، وفقا للظروف الزمانية والمكانية . ولم يتقيدوا بمبدأ معين ولا بسياسة ثابتة • لقد حكموا امبراطورية واسعة ، متباينة بشعوبها ولغاتها وطقوسـها وتطورها التاريخي • فسلكوا مع كل شعب من شعوبها ، بل ومع كل فئة من فئات ذلك الشعب ، سياسة تنسجم مع العادات المحلية والتقاليد السطحية والخرافات ، ورغبات العامة والمشعوذين الذين يمثلون أحط فئة اجتماعية وأكثرها جهلا • فاستدروا ثناء هـذه الفئات الاجتماعية الممزقة ، وأمنوا مشاغبتها • وكان كل ما يهمهم ـ طبعا ـ أن تكتسب مشاريعهم الضارة موافقة هذه الفئات ورضاها•

كان نفوذ المستعمرين ـ فى تغلغله التدريجي ـ مرنا لينا حينا ، قاسيا شديدا حينا آخر • كان يتلون بلون المحيط أو المرحـلة التاريخية أو الظرف الآتي ، للمشيخة أو القبيلة أو الفئة التى يريد ادخال عنقها في الطوق •

كانوا يستعملون سياسة عقد المعاهدات أو الاتفاقات الضـيقة الخاصة . القابلة للتحوير والتعديل مع هذا الشيخ أو ذاك •• ثم يعمدون الى تعديلها ـ بصورة بطيئة ـ فكانوا يسلبون فى كل تعديل جديد حقا من حقوق الشيخ أو الامير أو السلطان ، كما يمتنون ربط منطقته بالنفوذ •• فكانت المرونة والبطء يسببان تراكم الامتيازات الصغيرة ، التى لا يشعر الشيوخ بوطأتها الا بعد تراكمها ، وتحولها الى أغلال محكمة ترتبط أعناق أولئك الحكام الصغار بالعجـلة الاستعمارية •

والى جانب المرونة • كان الاستعمار الانكليزى يتصف باللين والشدة فى وقت واحد •• فبقدر ما هو شديد قاس بل ومتوحش مع العناصر الشعبية أو المقاومة لنفوذه ، نراه لين العريكة متساهل مع الطبقات الرجعية والفئات الحاكمة العميلة ، فيغدق عليها الاعطيات والرواتب ويمكنها من التحكم فى رقاب المواطنين ، كى تسلس له القياد •• وتمكن لصالحه أن تسود وتسيطر وتبقى •

ثالثا : سياسة الاحتلال الدائم :

لقد بدأت بريطانيا باحتلال النقاط العسكرية والسوقية المهمة لحماية مصالحها التجارية في الهند • واستخدمت المناطق المحتلة زمنا طويلا نقاط مراقبة واشراف ، وقواعد عسكرية للسوق والتموين •

ولكن الانكليز ما لبثوا أن اكتشفوا أن بامكانهم الاستفادة من هذه المناطق المحتلة وذلك بايجاد مصالح خاصة في المنطقة يستطيع المستعمرون استغلالها بصرف النظر عن الهند وطريق الهند ·

كانت بريطانيا تحتكر شراء السلع والمواد الاولية المرغوبة من بلاد الشرق · ومع الزمن أضافت بريطانيا الى هذه العملية احتكار القوة الشرائية لأسواق الشرق ، فأخذت تبيع فيها بضائعها الفائضة ، وحرمت على هذه الاسواق التعامل الحر مع الامم الاخرى · وتبعا لهذه المصلحة البسيطة نسبيا ، كان نفوذ بريطانيا - في هذه المناطق - نفوذا تجاريا غير ثابت الدعائم · وكانت تقوم برعاية شركة الهند الشرقية نيابة عن الحكومة البريطانية ·

ولكن مصالح بريطانيا لم تبق منحصرة في التعامل التجاري البحت بل تحولت الى نواح جديدة أكثر سعة وعمقا · واستبدلت - بسياستها القديمة المتحولة - سياسة استعمارية ثابتة ومباشرة · فتنحت شركة الهند وحلت الحكومة البريطانية - بذاتها - محلها · فلم تعد تكتفي ببسط نفوذ متقلقل عابر ، بل أخذت تفرض سيطرة عسكرية وسياسية مطلقة دائمية · وأصبح الاحتلال المنظم الدائم طابع السياسة البريطانية في هذه المرحلة · ولا سيما في المناطق الحساسة

وقد رأينا سابقا أنه مع تطور وسائل الانتاج في بريطانيا ، كانت تتطور معها البضاعة كما وكيفيا · وتتطور - تبعا لذلك - العلاقات السياسية والعسكرية في المستعمرات وأشباه المستعمرات ·

حين كانت تجارة البهارات والمواد الاولية الاخرى تشكل أساسا للعلاقات بين بريطانيا والهند · احتكرت شركة الهند هذه التجارة ·

وحين تحولت أسواق الهند وبلاد الشرق الاخرى الى (بالوعة) تمتص منسوجات انكلترا وسلعها الفائضة الاخرى ، احتكرت انكلترا هذه الاسواق وثبتت أقدامها فيها وسيجتها بنفوذها وحاصرتها بأساطيلها ·

وحين ظهرت أهمية المخابرات ، ومدت الاسلاك البرقية عبر القارات ، أرسلت انكلترا خيرة خبرائها الى البحرين وسواحل الخليج وعمان لمسحها وانشاء المراكز التي توصل منها أسلاك البرق الى الشرق والغرب · واستبدلت مؤسساتها التجارية بمؤسسات سياسية

تتناسب مع اهمية الأوضاع الجديدة. وكلما كانت المصالح البريطانية تتنوع وتتعمق وتتضاعف ، كانت حاجة بريطانيا الى سرعة المواصلات وقصرها ، والى ايجاد شبكات واسعة ودقيقة للمخابرات تشتد معها . فعمدت انكلترا الى تشييد السكك الحديدية ، وانشاء مراكز البرق والبريد بين لندن والهند ، ولا سيما عن طريق العراق وسواحل الخليج ومسقط . فأرسلت (باتريك ستيوارد) ليدرس سواحل الخليج استعدادا لمد الأسلاك البحرية . وبدىء - فعلا - بخط يصل الفاو بالخط التركي في بغداد ، عام ١٨٦٧ . وقد افتتح الخط في عام ١٨٧٠

وحين اكتشفت المعادن الثمينة وزادت أهميتها بانتشار الصناعات الثقيلة ، بادرت انكلترا الى استغلال هذه الثروات ، وحرصت على تزويد صناعتها بالمواد الاولية من مستعمراتها . أو نقل معاملها الى قرب المواد الاولية والايادي العاملة الرخيصة في المستعمرات .

ولما اكتشف البترول ، احتكرت انكلترا بعض منابعه ثم تابعتها امريكا والدول الاخرى في احتكار المنابع الباقية ، وخاصة في ايران والعراق والكويت والسعودية والبحرين وقطر ورأس الخيمة ومسقط وأبو ظبي وظفار والبريمي وعمان الداخلية . واشتد التنافس على البترول وقامت المعارك لاقتسام منابعه القديمة والبحث عن المنابع الجديدة لاحتكارها . وبدأت الدول الاستعمارية الغنية تنقل رؤوس أموالها الى منابع النفط لاستثماره ونقله . وظهرت الاحتكارات العالمية التي احتكرت ثروات العالم تقريبا. ولعبت سياسة الاحتكار والبترول بمصير العالم وعرضته للحرب الاستعمارية العالمية المدمرة .

وعندما ظهرت صناعة الطيران بشكلها المؤثر وظهرت أهميـــة الاجواء والموانىء الجوية في أيام السلم والحرب . شرعت بريطانيا في انشاء القواعد الجوية على طريق امبراطوريتها وخاصة في ســواحل الخليج وعمان . واتخذت من هذه المصالح الجديدة .. مصالح البترول والقواعد حجة جديدة لتثبيت أقدامها في المنطقة العربية ، متشبثة بما لديها ، طامعة في مد نفوذها الى المناطق الجديدة المجاورة .

كل هذه المصالح القديمة .. والحديثة ، كانت تعزز عملية الاحتلال الدائم للمناطق المهمة ، والحرص على التمسك بها . والسعي الدائب لاكتشاف مصالح جديدة لها في هذه المناطق تبرر لها تشديد قبضتها

عليها ٠٠ واتخاذ قواعدها مراكز لتجمع جيوشها وللانطلاق منها لاحتلال المناطق المجاورة ٠

رابعا ـ حروب الابادة والتدمير والمصادرة والافقار :

من المعلوم جيدا أن الغاية الاولى والاخيرة من الاستعمار والاحتلال انما هي نهب البلاد المستعمرة ، بالاستيلاء على منتجاتها ، واحتكار كنوزها ، وتسخير شعبها للعمل في أقسى ظروف للعمل وبأبخس الاجور ، ان لم تكن السخرة من الاعمال المألوفة في بعض المستعمرات

ولا تتم هذه النتائج للاستعمار مرة واحدة ٠٠ بل بعد معالجة طويلة ، وباتباع سياسة مدروسة تنتهي بتدمير الحياة الاقتصادية في البلاد ، وشل حركة التحرر والانعتاق فيها ، وايقاف دولاب التطور والنمو ٠٠ ان لم تكن هنالك محاولات جدية للرجوع به الى الوراء ٠

ولذلك فقد جمد المستعمرون ـ في كل المنطقة العربية التي سيطروا عليها ـ الحياة ، بتجميد التطور ٠٠ وتجميد أساليب النشاط القديمة البالية ، وعدم السماح بتطويرها مع تطور العلم والحضارة أو تحسينها ٠ وهكذا ثبتوا في الصناعة الزراعية وكل نشاط اقتصادي حيوي وسائل الانتاج البدائية ٠ لتكون ـ بدورها ـ عاملا من عوامل المحافظة على كل قديم بال واشاعة التأخر والجهل ، وتمكين الخرافات ، وطبع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بطابعها الرجعي المفكك ٠

ولم يكتف المستعمرون بذلك ، بل وضعوا الى جانب وسائل الانتاج الزراعي والصناعي البدائية ، سلعهم الحديثة ، لتنافس الانتاج المحلي الضعيف ٠٠ فتدمره ٠٠ وتهبط بالسكان المحليين الى مهاوى الفقر والفاقة ٠٠

وبما أن سكان المنطقة العربية في عمان والخليج العربي كانوا يملكون في منطقتهم ثروات طائلة ، وتجارة رابحة وأساطيل عسكرية وتجارية قوية ٠ وكل هذه ، عوائق تحول دون وصول المستعمرين ـ بسهولة ـ الى النتائج التي تقدم شرحها ٠

وبما أن سواحل عمان والخليج العربي تقع على طريق الهند ٠ ولابد ـ من أجل تأمين سلامة الامبراطورية ـ من أن تحتلها انكلترا وتدمر أساطيلها ، وتسحق كل نشاط اقتصادي أو سياسي أو استقلالي ـ أيا كان نوعه ـ فيها ٠ فقد سلك الانكليز جميع الطرق واستخدموا

كل أنواع الاساليب لتدمير الاساطيل العربية وتهديم قواعدها ٠٠ وتدمير واحراق موانئها ٠٠

ولم تقف البلاد العربية المعنية بالامر مكتوفة اليدين لتتم الخطة البريطانية بالسهولة التى كانت ترجوها ٠ فقد كانت المنطقة العربية مستقلة تمام الاستقلال ٠ وكانت لها فيها دولة بحرية قوية مرهوبة الجانب ٠ وكانت تقبض بأساطيلها وثروتها وخبرة بحارتها وتجارها على تجارة المحيط الهندى ٠ فلم تستسلم للعدوان الانكليزى ، بل قاومته ، وخاضت المعارك الحربية الطاحنة لتثبيت مصالحها الحيوية كما تقدم معنا ٠ فاجتمعت ــ كل هذه الاسباب ــ لاقناع انكلترا بأنها لن تنال من قوة عمان والسواحل العربية الا بالحرب الشاملة وبالابادة والتدمير والحرق والافقار وتشتيت القوى ، وقتل المقاومين الأشداء والتمثيل بهم ٠ فأولت للمنطقة العربية اهتمامها الاول ودأبت على تنفيذ خطتها بأناة وصبر ، حتى تم لها ما أرادت ، مستبيحة ــ فى سبيل ذلك ــ جميع الاساليب الغاشمة وغير المشروعة ، بما فى ذلك الغارات العدوانية المفاجئة وحروب الابادة والتدمير وغير ذلك من أعمال التنكيل والقهر ٠ كما استخدمت حق تفتيش السفن ، بحجة البحث عن الرقيق ومصادرتها لمجرد التهم الباطلة بقصد تدمير قوة العرب البحرية وافقار الشعب العربى وسد منابع الرزق أمامه ، وتحويل القسم الاعظم منه الى خدم أذلاء ترتبط حياتهم بمدى ما يقدمونه للامبراطورية البريطانية من خدمات ٠

خامسا ــ فلسفة التجزئة وتفتيت القوى :

قاومت بريطانيا ــ خلال حكمها الطويل ــ كل محاولة جدية لتوحيد القوى فى جزيرة العرب أو الاتجاه لتحريرها ٠ بل انها قاومت ــ حتى محاولات توحيد جزء من أجزائها المهمة ٠ وحالت دون تكتل الشعب العربى وتوحيد نضاله فى كل مكان ٠٠ فجزأت عمان ٠٠ ثم جزأت مسقط ومزقت مشيخات ساحل الهدنة وفرضت التجزئة على كل سواحل الخليج العربى وخلقت عددا من الدول الصغيرة الضعيفة ٠ وباعدت مابين هذه الاجزاء مؤججة نار العداوة والحرب ، وخلقت عددا كبيرا من الامراء والاتباع الخانعين ، وفرضت عليهم أحكاما حببت اليهم التجزئة وأثارت المشاحنات والخصام بينهم ٠٠ وسلحت بعضهم ضد بعض ، ثم هرعت لتحمى بعضهم من بعض ولتقيم من نفسها حكما

بينهم ، لتفرض مشيئتها على الجميع • حتى أشعرت كل شيخ أو متزعم أو أمير أنه لا شيء بدونها •

لقد جعلت بريطانيا مقاومة شعار الوحدة أو الاخاء أو التقارب أيا كان نوعه فلسفة تبني على أساسها خططها في المنطقة • حتى عرفت ـ في العالم كله ـ بأنها صاحبة فلسفة (فرق تسد) ، فلم تسمح بأي تقارب حتى بين عملائها ومأجوريها ، خوفا من أن يستأسد هؤلاء عليها أيضا • وجعلت من عملية التجزيء وتفتيت القوى ديدنها وهمها •• ولم تكتف بالمناطق التي تقع تحت يدها ، بل تجاوزت الحدود في نشاطها المخرب فحاربت محاولات التوحيد في جزيرة العرب •

ولكن أبرز مكان ظهرت فيه دسائس بريطانيا مفضوحة عارية لئيمة ، في منع الوحدة هو عمان • فقد جعل الانكليز من سياسة التجزئة وتفتيت القوى وتحويلها الى أحجار مهملة تنتقل بها بريطانيا وفق مصالحها من مكان الى مكان •• ديدنها طوال قرنين ونصف من الزمن ••

ولم تتوقف دسائسهم ـ هذه ـ في المنطقة حتى اليوم • والعدوان الاثيم على عمان الداخلية جزء من هذه الخطة التي تحاول منع عمان من تثبيت استقلالها • لأن الاستقلال يعني انضوائها تحت لواء الركب العربي •• وهذا ما تحاربه بريطانيا بكل قوة •

سادسا ـ محاربة العنصر العربي وفرض طابع غريب :

يحتل الشعب العربي أخطر موقع جغرافي بين الشرق والغرب •• وقد لعب في التاريخ دورا ايجابيا رائعا في نقل الحضارة الانسانية وتطويرها • ولا بد أن يلعب في المستقبل القريب دورا ايجابيا مماثلا على الاقل •

وانه لدور خطير مشرق بالنسبة للعرب وللشعوب المحيطة بهم •• ومدمر قاهر بالنسبة لكل طامع أثيم ، يحمل الروح الاستعمارية الشريرة من المستعمرين الغربيين القدامى أو من تلاميذهم وأجرائهم الصغار أو من المؤمنين بفلسفة مناطق النفوذ •

فلا عجب أن يلاقى الشعب العربى الباسل أشد مقاومة ·· وأكبر الحروب العدوانية وأعنفها ·· من هنا وهناك ·· وأن تتكتل ضد وحدته الانسانية الثورية التقدمية وضد حريته كل القوى المتآمرة الاستعمارية الظاهرة ·· أو القوى العمياء الجاهلة المتنكرة للقيم الانسانية الرفيعة ·· والتى تسير ـ عن علم أو غير علم ـ وفق المخططات العنصرية والعدوانية البغيضة ·

هذا هو موقف الاعداء من أمة العرب ·· ومن وحدتها ، وحريتها بصورة عامة · وانه لموقف حديث نسبيا لم يتبلور بشكله العلنى الصريح الا منذ ما يقرب من نصف قرن بالنسبة للقوى العالمية المعادية ·· أما بالنسبة للانكليز فقد فطنوا الى الخطر قبل غيرهم نسبيا ·· فهم من قرن كامل يحملون روح العدوان والشر والمقاومة والكراهية للشعب العربى ، كعنصر وكأمة ·· فقد استشفوا الخطر الذى يكمن من نهضته ضد خططهم العدوانية وآثامهم ·

وهكذا فان العنصر العربى كان ـ بالنسبة للسياسة الانكليزية ـ موضع المقاومة والكبت ، وما يزال · لأنه : بالاضافة الى ما تقدم من دوره الانسانى التحررى الموعود يمثل ـ آنيا ـ شعب البلاد ، وهو الشعب المهيأ ـ دون غيره ـ لتحريرها وتطهير أرضها من الشرور ·· فوجه الانكليز اليه جل ضغطهم ·· بل حاولوا ـ فى معظم المناطق التى دخلوها كمسقط وسواحل الهدنة والخليج العربى ـ أن يشتتوا قوى العرب ، وأن يجبروها ـ بالارهاب والتجويع والكبت ـ على الهجرة الى الداخل فيتبددون فى فيافى الصحراء ويذوبون · وشجعوا ـ فى الوقت ذاته ـ هجرة العناصر الغريبة (فارسية ـ هندية ـ يهودية ـ غورغية ـ سوداء ـ أرمنية ـ أشورية) لتحل محل العرب فى بلادهم ولتكون أقليات كبرى حاكمة ، أو أكثريات مع الزمن ـ ان أمكن ·· وهكذا تفصم العناصر الاجنبية الغريبة المنطقة العربية عن العالم العربى الكبير ، وتستأصل الوشائج القومية التى نمت ورسخت خلال آلاف السنين ·

واستخدم الانكليز ـ لتحقيق هذا الغرض ـ مؤسساتهم العسكرية والتجارية والصناعية والسياسية ، فشحنوها ـ أولا ـ بأمثال هؤلاء الاجانب ، مع اهمال أبناء البلاد واحتقارهم وابعادهم عن كل مسئولية

ما امكن . فاذا زرت أيها القارىء الكريم المؤسسات الاستعمارية في مسقط والبحرين وقطر وغيرها من الامارات والمشيخات .. بل اذا زرت المؤسسات التي تحمل أسماء وطنية ولكنها تخضع مرغمة للانكليز ولفلسفتهم في الحكم .. لشاهدت الآلاف من هؤلاء الصنائع العملاء الذين استقدمهم الحكام من كل بلد غريب .. بعد أن تمرسوا في خدمة الاجنبي ، وتحرروا من كل رابطة قومية أو انسانية ، تربطهم بالشعب الذي يشاركون الاجنبي في حكمه واذلاله .

بل والادهى من ذلك أن الانكليز لم يكتفوا بالموظفين والمستخدمين يستقدمونهم من البلاد الاجنبية .. بل فتحوا أسواق البلاد المحكومة للجاليات الواسعة الغريبة وسلموها شؤون التجارة والصناعة ودعموها ضد أبناء البلاد .. فبينما كانت تزداد الجاليات الاجنبية ثراء ونفوذا كان ينحدر أبناء البلاد .. أكثر فأكثر الى مهاوى الفقر والجوع والمرض والذل ..

بهذا الاسلوب .. وبهذه الفلسفة المجرمة هيأ الانكليز العناصر الغريبة في الوطن العربي لتشارك الاجنبي في حكم العالم العربي وفرض القيم الفاسدة عليه والترويج للشعارات الكاذبة .. والعمل الدائب ، في الظروف الحرجة ، ضد أماني الوطن الذي تعيش من خيراته ..

وساند الانكليز ـ الى جانب هذا وذاك ـ التفكك الديني والمذهبي والعنصري والاقليمي . وشجعوا الاقليات على البروز في المجتمع والتظاهر بما يخالف أماني المجموع . والانفصال عن الكيان العام وتشكيل كيانات غير عربية .. عميلة ، مستقلة عن المجتمع ومغايرة لأهدافه وأمانيه .

فاذا اكتشف الانكليز أن لديهم منطقة ليس فيها اقلية دينية أو جنسية أو مذهبية يمكن استخدامها ، لتقوم بمثل هذه الاعمال التخريبية .. خلقوا لها أقلية من العدم بواسطة الهجرة الاجنبية اليها . أي أنهم بادروا الى استيراد أقلية أجنبية ، ليجعلوا منها أداة طيعة يحكمون البلاد بواسطتها ، ويسلسون قياد الناس بتجسسها . حتى اذا ما اشتد المد الوطني ، وأحدق الخطر بالانكليز ، لم يترددوا

عن وضع هذه الاقليات المخدوعة ، فى خطوط النار الاولى ٠٠ يتقون الاذى بصدورها ، ويجعلون منها صمام امن ، يخففون به ضغط الحركة الوطنية كلما اشتد ضرامها ٠ والبحرين ـ اليوم ـ خير مثال لهذه الفلسفة الغاشمة ٠

سابعا ـ اثارة المطامع الاجنبية مع التلويح بشبحها :

أثارت بريطانيا لعاب بعض الدول المجاورة ، الطامعة باحتلال بعض أجزاء من الوطن العربى ، فى الخليج ، عمان مثلا ٠

كان دور بريطانيا : استخدام الدول المجاورة لاخضاع الشعب العربى ٠٠ فشجعت تلك المطامع وعقدت المحالفات العسكرية والسياسية مع الاتراك والايرانيين ٠ بل وساعدتهم عمليا فى معاركهم ضد القبائل العربية ، فى ظروف ومناسبات تاريخية كثيرة ورد ذكرها فى الفصول السابقة ٠ فأثارت المخاوف فى قلوب الحكام الصغار الذين أقامتهم به (المزق الجغرافية) التى أوجدتها على السواحل العربية ٠

لقد أشعرت أجراءها من أمراء وشيوخ ومتنفذين فى مسقط والسواحل المهادنة وفى غيرها من البلاد المحكومة على أمرها ، بالخطر الاجنبى الداهم ٠ وأوهمتهم أنهم ضعاف أمام الخطر الاكيد ٠٠ وان لا ملجأ لهم غيرها ٠٠ وانهم زائلون ـ لا محالة ـ ان لم يتحولوا الى خدم طيعين لها ٠ ومنفذين لرغباتها ٠

ولكى لا يفلت هؤلاء الاجراء من قبضتها قيدت أعناقهم بأغلال المعاهدات والاتفاقيات وتعديلاتها وملاحقها ٠٠

وأفقرتهم وقطعت موارد رزقهم وأجرت عليهم أعطياتها ٠ وحولتهم ـ بهذه السياسة ـ ولا سيما سياسة اثارة المطامع الاجنبية والتخويف بها ٠ من أمراء مستقلين وحكام محترمين الى مرتزقة وحراس للنفوذ البريطانى ٠

ثامنا ـ سياسة الحجر السياسى وعزل المناطق العربية عن وطنها الكبير :

حاولت بريطانيا بجد ونشاط مستمرين الحجر على مستعمراتها ، ومنع اتصالها بالخارج الا عن طريقها ٠ وعزلتها عن العالم العربى

ـ وطنها الكبير ـ عزلا تاما ، وأحاطتها بسياج من الاساطيل والمعاهدات وحاصرت اقتصادياتها وأخضعت صادراتها ووارداتها للمصالح الاستعمارية الاساسية • فانفصلت المنطقة لزمن طويل عن أحداث العالم العربى •• بل وحتى عن أحداث العالم كله • فلما هبت الحركة الوطنية فيها •• كانت حركة منفصلة أيضا عن الحركات الوطنية العارمة فى بلاد العرب وعن الحركات التحررية الاخرى فى العالم • وعن الوثبات الوطنية الكبرى والانتفاضات الاجتماعية التى حققها العرب في كل مكان • وكان من نتيجة هذا الحجر ، والعزلة المقصودين أن العالم العربى ـ بدوره ـ كاد ينسى وجود هذه المنطقة ، ويجهل حتى الأمور البديهية البسيطة فيها •

ولولا أن شعب عمان العربى الباسل قد ثار على هذه السياسة الماكرة وحطم قيودها فى منطقته المجاهدة ، لظلت المنطقة العربية في الجنوب الشرقي من وطننا مجهولة مهملة •

ان عزل الاستعمار الاجنبى لعمان وبلدان سواحل الخليج لم يكن فى صالح شعبها طبعا ولا فى صالح الشعب العربى الكبير على الاطلاق •• بل كان على النقيض من ذلك ، عاملا أساسيا فى تدهور أحوال البلاد وتأخرها • وهذا هو ما أراده المستعمرون الانكليز •

خاطب اللورد كرزون رجال العشائر في الشارقة عام ١٩٠٣ فقال:

« ان سياسة الحكومة البريطانية ـ فيما يختص بهذه المنطقة ـ تقوم على أساس المحافظة على الاوضاع كما هى ، لأجل غير مسمى »

وهذا هو ما فعلته بريطانيا تماما • فانها حافظت على العزلة والجهل والمرض والفوضى والفتن والتأخر والفقر والتدخل الاجنبى البغيض الى أجل غير مسمى •

كانت هذه السياسة الاستعمارية مرنة •• متطورة •• كما سبق وذكرنا •• ولكن مرونتها وتطورها لم يستخدما قط لتحقيق أية مصلحة للشعب العربى •• بل لتسهيل انسجام المنطقة مع تطور المصالح الانكليزية ولحماية الامبراطورية الاستعمارية فى الهند •• ولحسن حراسة طرق مواصلاتها • وأخيرا لتأييد الاحتلال والنفوذ الانكليزيين فيها • وخلق المصالح الجديدة التى تبرر هذه السياسة وابتكارها •

الفصل السابع عشر

استقلال عمان الداخلية

بين سلطنة مسقط وامامة عمان :

منذ أن تخلى سلاطين مسقط عن الامامة والتفتوا الى شؤون التجارة وجمع المال ، وقصروا نشاطهم على الساحل والشريط الساحلى الضيق (الباطنة) بدأ الأمراء والقادة ورجال الدين فى عمان الداخلية يفقدون ثقتهم بهؤلاء السلاطين تدريجيا ، حتى نفضوا أيديهم من انصلاحهم • ثم نبذوهم واستقلوا فى عمان الداخلية عنهم

وكان كلما مضى الزمن اشتدت الفرقة واتسعت الشقة بين عمان الداخلية ومسقط •

يساعد على التباعد والفرقة انصياع سلاطين مسقط للتوجيهات الاستعمارية الانكليزية • ثم خنوعهم لها بدون قيد ولا شرط •

ونظرا لان المصالح الانكليزية كانت ـ طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ ترتبط ارتباطا جذرياوثيقا، بسلامة طريق الهند • ونظرا للاشراف المباشر الذى فرضه الانكليز على السواحل المطلة على هذه الطريق ، ومنها السواحل العربية • ونظرا للمقاومة الباسلة التى أبداها عرب‌عمان ضد تغلغل نفوذهم• فقد انحصر النفوذ الانكليزى ـ بصورة عامة ـ على السواحل ، ولم يتغلغل الى الداخل • بل اضطر لاهمال عمان الداخلية وساعد على استمرار هذا الاهمال زمنا طويلا ، انه لم يكن للانكليز فى عمان الداخلية ـ آنذاك ـ ثمة مصالح جدية عاجلة • ولا شك أنه كان لحرص عمان الشديد على حماية استقلالها ، والابتعاد عن الغرب ما أمكن ، والتحفظ الشديد عند اقامة العلاقات معه ، الاثر الاول فى ذلك •

ونظرا لقوة شعب عمان الداخلية ، والبسالة التى اتصف بها •

فان بريطانيا ، تجنبت ـ بدورها ـ الاصطدام به ، وأهملت شؤونه الى حد ما · موفرة على نفسها الخسائر المؤكدة التي لا منفعة لها من ورائها ·

كيف تأكد استقلال عمان الداخلية :

ان ما ذكرناه في الفقرة السابقة لا يعني ان بريطانيا قد أهملت عمان اهمالا تاما ، وتركت شؤونها لاهلها· بل نجدها ـ رغم تجنبها الاصطدام بالعمانيين ـ ما تنفك تدس الدسائس ضدهم · وتساند أعداءهم · وتعرقل مصالحهم في المناطق الساحلية التي تحتلها ·

بل لقد وقفت انكلترا ـ بكل صراحة وقحة ـ ضد بعث الامامة ·· أو ضد الائمة المنتخبين من شعب عمان·وقد وقفت جنود انكلترا ـ كما رأينا ـ دون احتلال الشيوخ أو الائمة لمسقط ومطرح مستخدمة أسطولها وقواتها المسلحة ·

فقد حاول عزان بن قيس توحيد عمان الداخلية والساحلية · وتحرير الثانية من النفوذ الانكليزي · فلما نجح في مسعاه ·أثارت انكلترا ضده كل طامع وأجير حتى استشهد بنتيجة الدسائس والتدخل الانكليزيين ، بينما كان يدافع عن مطرح · وهكذا كان لانكلترا الضلع الاكبر في سقوط الامامة ـ آنذاك ـ ·

ومنذ سقوط الامامة باستشهاد الامام الشجاع عزان بن قيس·· وحتى عام (١٩١٣) حاول شعب عمان بعث الامامة مرارا فلم يفلح بسبب الفرقة والنزاع الداخلي والدسائس التي كانت تشتد بتأثير الانكليز وصنيعتهم سلطان مسقط ·

الا أن العمانيين رغم دسائس الانكليز والسلطان ورغم تدخل الجيش والاسطول الانكليزيين السافر ، كانوا يحمون استقلال عمان الداخلية ، ويحولون دون أي تدخل في شؤونها · وقد أكدت جميع الوثائق المعتبرة ـ بما في ذلك الوثائق الانكليزية ـ هذه الحقيقة الدامغة · ألا وهي استقلال وسيادة عمان الداخلية ·

جاء في كتاب المعهد الملكي البريطاني في الشرق الاوسط ، وفي الفصل المخصص لدراسة أوضاع مسقط وعمان ما يلي :

« ··· في الحقيقة انه عند نهاية القرن التاسع عشر لم يتجاوز نفوذ سلاطين مسقط المناطق الساحلية وظفار ، الى قبائل داخلية

عمان . وفي عام ١٩١٣ اجتمعت القبائل وانتخبت لها اماما كان خليفته عام ١٩٢٠ الامام محمد بن عبد الله الخليلي ، وهو في الواقع صاحب السلطان على القبائل التي تعيش في منطقة تمتد نحو مائتي ميل الى الشمال الغربي والجنوب الشرقي من مقر امامته نزوى ، الواقعة الى الجنوب من الجبل الاخضر . فهذه القبائل البدوية الداخلية تدين له بالوفاء »

والحقيقة التي لا مراء فيها ، انه : حالما استطاع الشعب العربي في عمان أن يقضي على أسباب الفرقة والنزاع وأن يوقف الدسائس الاجنبية عند حدها . تم له النصر الذي يحلم به ألا وهو بعث الامامة . فأجمع الشعب وقادته على انتخاب امام .. وأقام حول الامامة سياجا من التضحيات والجهاد المتواصل حتى أبعد كل خطر عنها من عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٥٥ . مبددا ـ بنصره هذا ـ من حولها جميع الغيوم الداكنة والمطامع الآثمة التي كانت تراود الانكليز وصنائعهم .

بعث الامامة وتوحيد عمان :

كان اخوف ما يخافه سلاطين مسقط وأسيادهم الانكليز ، أن تتحد قبائل الداخل وأن تتقوى عمان فتتحرر . لذلك كان اى تقارب بين قبائل عمان الكبرى ، وخاصة بين الهناوية والغافرية ، يشكل خطرا داهما يقتضيهم وقفه .

يضاف الى ما تقدم أن تهريب الاسلحة الى عمان الداخلية كان يقض مضاجع الانكليز . فكانوا يعملون كل شيء لوقفه أو تخفيفه باذلين في ذلك الجهود المادية والمعنوية .

ورغم أن سلاح التفرقة وتمزيق الصفوف كان سلاحا انكليزيا ماضيا لزمن طويل .. الا أن وعي الشعب العربي في عمان فضحه وكشف عن خفايا السياسة الانكليزية . فبادر الى ازالة أسباب الفرقة من صفوفه ، وتصفية الخلافات المصطنعة ، القائمة بين القبائل ، وتوحيد الجهود من أجل غاية سامية هي بعث الامامة . وتوحيد عمان وطرد الاجنبي منها .

وقد تكللت جهود العمانيين بالنجاح وبعثت الامامة في شهر جمادى الأول من عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) . وانتخب (سالم بن

راشد الخروصي) اماما • وهو أحد أفراد قبيلة شهيرة انتخب منها أئمة كثيرون في القديم •

وكان تحقيق الاتحاد بين قبائل الغافرية والهنارية (اليمانية والعدنانية) من أهم عوامل هذا النجاح ، فتحقق بذلك لعمان المنعة والقوة • وتمت حماية استقلالها عن هذه السبيل •

حرب عمان الظافرة وآثارها :

كانت المصالحة العامة ، وحلول روح الالفة والتعاون والفداء بين مختلف فئات الشعب العربي في عمان وقبائله، عنوان المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد ، فمنذ عام ١٩١٣ وحتى اليوم وهذه الألفة والتعاون والمنعة تشتد وتقوى يوما بعد يوم • كما تصقلها الأحداث وتزيد في ربطها بأحداث العالم العربي •• وبنهوض القومية العربية • حتى غدت معركة عمان اليوم ، بفضل ذلك ، جزء من نضال العرب العام •

لقد آمن العمانيون بالتجربة •• وبآلام السنين الماضية ، انهم بقدر ما يستطيعون التغلب على أسباب الفرقة •• بقدر ما يحتفظون بحرية بلادهم واستقلالها • وبقدر ما يحققون المنعة والاستعداد لتحرير الاجزاء المحتلة من وطنهم •

وبهذا السلاح والمنعة استطاعت قوات عمان أن تخوض حربا طاحنة ضد سلطان مسقط الاجير وضد أسياده الانكليز دامت سبع سنوات وانتهت بظفر عمان •

ففي صيف عام ١٩١٣ احتلت قوات الامام مدينتي نزوى وازكي (في عمان الوسطى) • وفي أواخر الصيف احتلت مدينة سمايل وحصنها المنيع • ولسمايل أهمية حربية خاصة فهي المنفذ الوحيد الذي يصل بين الساحل والداخل • وقد أدى ضياع سمايل من أيدي أعوان سلطان مسقط الى زعزعة مركزه • فالسلطان بدون معقل سمايل ليس أكثر من شيخ قرية على حد تعبير السر (برسي كوكس) وقد أزال فتح سمايل العقبات من أمام قوات الامام لاحتلال مسقط، فتقدمت نحوها • ولولا حماية الجيش الانكليزي الفعلية التي عسكرت في (فلج القبائل) على أبواب مسقط •• لانهارت قلاع السلطان وسقطت في أيدي قوات الامام لدى الصدمة الاولى •

مات فيصل بن تركي ـ سلطان مسقط ـ في ابان حصار عاصمته، وخلفه ابنه تيمور، الذي لم يكن أقوى من أبيه ، فلم يستطع أن يفعل شيئا وظلت قوات الامام تحيط بالسلطنة من كل جانب ‧ وبات سقوطها قاب قوسين أو أدنى ‧ وعجز الانكليز ـ بسبب اشتراكهم في الحرب العالمية الاولى ـ عن الاستمرار في المقاومة ، فزار اللورد (هاردنغ) نائب الملك في الهند شواطىء الخليج العربي ‧ فنصح للسلطان في شباط (فبراير) عام ١٩١٥ أن يسالم عمان الداخلية ‧ وأن يعقد الصلح معها معترفا باستقلالها ‧‧ ومتنازلا عن المناطق التي تم احتلالها من قبلها ‧ معلما له بصراحة : ان الانكليز لن يستطيعوا أن يظلوه بحمايتهم الى أجل غير مسمى ‧

وقد بسط الوكيل السياسي للسلطان الاسباب التي دعت بريطانيا لتقرير هذه السياسة ‧ فمن يطالع هذا التقرير يستخلص الاسباب التالية :

١ ـ أن قوات الامامة تقبض على مفتاح الموقف وذلك لانها تحتل وادي سمايل وحصنه الذي لم يكن غنى عنهما لازدهار التجارة في مسقط ، في أيام السلم ، ولحمايتها في أيام الحرب ‧

٢ ـ ان دعوة الامام الى الجهاد ضد الانكليز وأعوانهم دعوة مخيفة ‧ في ذلك الظرف الدقيق على الافق ‧ لان الانكليز كانوا يفاوضون في أثناء ذلك شريف مكة لاعلان الجهاد المقدس ضد العثمانيين الى جانب الانكليز ـ ولا بد له أن يخلق استمرار دعوة الامام للجهاد الديني ضدهم ارتباكات ومصاعب عالمية ولاسيما في الهند وجزيرة العرب وشمال افريقيا ‧

٣ ـ لا يمكن حل المشكلة ورد قوات الامام بمجرد استخدام الرشوة وقد اقترحها عليهم سلطان مسقط ‧ لعدم جدوى ذلك ‧ ولان معظم الامراء والقبائل ‧ يعزفون عنها ‧ وقد جرب الانكليز هذه الطريقة قبلا فلم تعطهم النتائج المشجعة ‧ والا لما زهدوا فيها وهم الذين كانوا ـ في الوقت ذاته ـ يبذلون الملايين في هذا السبيل في مختلف مناطق العالم ‧

٤ ـ لن تستطيع السفن البريطانية مساعدة سلطان مسقط حينما يحتاج اليها بسبب الحرب ولبعدها وانشغالها بمهمات ذات صفة عالمية ‧

وقد بدأت بين الانكليز والسلطان من جانب وبين ممثل الامام من جانب آخر في عام ١٩١٥ ·

ففي شهر أغسطس من العام المذكور تلقى الوكيل السياسي كتابا بتوقيع الامام وتوقيع الزعماء الثلاثة الشيخ عيسى بن صالح الحارثي والشيخ حميد بن ناصر وقاضي الامام ، واتفقوا عليه على أن يجتمع الوكيل السياسي بالشيخ عيسى بن صالح الحارثي بوصفه ممثلا للامام ، على مقربة من مدينة السيب ـ على الساحل ـ لاجراء المفاوضة وبعد محادثات تمهيدية طويلة توقفت المفاوضات وعاد الامير الحارثي ·· وبدأت الاستعدادات للحرب ثانية · وفي تموز من عام ١٩١٦ استولت قوات الامام على الرستاق من حاكمها أحمد بن ابراهيم · وبذلك ضمن الامام قاعدة حربية خطيرة تطل على سواحل الباطنة المحتل من قبل السلطان ·

وخاف الانكليز أن تنهار قوات مسقط نهائيا فتنازلوا عن النقاط التي كانوا يتمسكون بها في المفاوضات السابقة · وبدءوا مع ممثل الامام مفاوضات جديدة ، طالت أربع سنوات ، الا انها انتهت بفوز جبهة نظر الامام ·

وفي عام ١٩٢٠ استشهد الامام سالم بن راشد الخروصي نتيجة مؤامرة لئيمة دبرها سلطان مسقط · وحاول الانكليز اثارة الفرقة مرة أخرى لفصم عرى اتحاد الشعب العربي في عمان · ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وتم انتخاب الامام الجديد محمد بن عبد الله الخليلي ، الذي استطاع خلال حكمه الطويل أن يضمن لعمان استقلالها ومهابتها ·

وفي أول عهده انتهت المفاوضات وعقدت معاهدة السيب التي سيأتي شرحها

الاعتراف باستقلال عمان الداخلية :

وقعت معاهدة السيب في اليوم الحادي عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٣٣٩هـ الموافق لـ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ م · وذلك بعد استشهاد الامام راشد وانتخاب الامام الجديد · وقد وقع المعاهدة ممثل الامام من جهة والمقيم الانكليزي ممثلا عن سلطان مسقط من الجهة الاخرى · وأطلق على المعاهدة اسم المدينة التي عقدت فيها :

« معاهدة السيب » . ومن أهم ما جاء في هذه المعاهدة هو اعترافها باستقلال عمان الداخلية الذى كان حقيقة واقعة. فجاء توقيع الانكليز عليها باسمهم وباسم سلطان مسقط اعترافا قانونيا بذلك الاستقلال الواقعى .

ولئن اختلفت نظرات الكتاب والمؤرخين والشراح الى هذه المعاهدة فما لا شك فيه ان قضية استقلال عمان الداخلية كان واضحا في معظم ما كتبه أولئك .

قال ولفرد تسيجر ــ الرحالة البريطاني ، الذي قضى وقتا طويلا في الطواف في مدن عمان وما جاورها :

« انه في عام ١٩٢٠ وقعت معاهدة بين السلطان والعمانيين . وقد رافق السلطان بمقتضاها على أن لا يتدخل في الشؤون الداخلية لعمان » .

وقال الكابتن « اكنز » وكان قد تولى قيادة قوات السلطان في فلج القبائل :

« ان ثمة معاهدة وقعت عن طريق وساطة الوكيل السياسي ، ولم يقع عدوان جديد منذ توقيعها » .

وقال في مكان آخر :

« ... لقد وقعت معاهدة بين مسقط والشيخ عيسى تعد تسليما ضمنيا باستقلاله » .

وقد تناول القنصل الفرنسي (فادألا) هذا الموضوع بالبحث في عام ١٩٢٠ فقال :

« كانت الحرب قد ظلت ناشبة سبع سنوات بين سلطان مسقط وعمان الداخلية ، ولم تنته الا في ٢٥ سبتمبر من عام ١٩٢٠ ، يوم وقعت وثيقة الصلح في السيب ، بين السلطان تيمور وعيسى الحارثي الذى كان يمثل جميع القبائل المحاربة ، وكان (ونغت) القنصل البريطاني ، هو الوسيط في عقدها . وبمقتضاها حق لاهل مسقط وعمان أن يتاجروا ويسافروا بحرية ، ولكن فرضت ضريبة خمسة في المائة على جميع سلع الداخل ساعة وصولها الى الساحل ، وبفضل هذا الصلح الذى كان ينتظر أن يعقبه ميثاق سرى يحظر كل طلب للتدخل الاجنبي ، صارت عمان اليوم هادئة ، وغدا في وسع التجارة أن يتسع نطاقها »

ولكن الى جانب هذه الآراء المحايدة لابد أن نورد رأيا يثير بعض الشكوك حول استقلال عمان لنناقشه :

يقول الموظف الانجليزي (برترام توماس) وكان وزيرا للسلطان ومستشارا ماليا ، منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٠ ، بصدد المعاهدة ما يلي :

« ... أمكن الوصول الى تسوية ، تقوم على أساس الحالة الراهنة . وبمقتضاها ظل السلطان سلطانا من الوجهة القانونية على مسقط وعمان . ونصت التسوية على أن تكون لقبائل الداخل حكومة من بينهم ، تعتمد على أساس الامر الواقع ، لتدير شؤونهم المحلية البحتة » .

نرى من سرد هذه الفقرة أن الكاتب الانكليزي ومستشار السلطان أراد التشكيك في استقلال عمان فزعم أنه استقلال واقعي .. بحت وليس له سند قانوني .. وأن سيادة سلطان مسقط تشمل المنطقتين الساحلية والداخلية .

والحقيقة أن نصوص المعاهدة تكذب هذا الزعم . وأن التفسير الذي جاء به لم يكن صحيحا . وانه لم يصدر أية وثيقة خطية علنية أو سرية عن الامام أو القبائل المحاربة تعترف بأية سلطة أو طاعة للسلطان . بل على العكس من ذلك فان جميع المنازعات والخلافات مع مسقط كانت تقوم على أساس انكار أية سلطة أو سيادة لحكام مسقط على عمان الداخلية . ومنع هؤلاء الحكام – ولو بالقوة – من التدخل في شؤونها . بل ولم تكن الامامة أو القبائل لتعترف للسلطان أو نوابه بأية سلطة شرعية على مسقط وما يجاورها .

يضاف الى ذلك أن كل من كتب عن الموضوع بما فيهم هذا الموظف الانكليزي أجمعوا على وجود حكومة قائمة في الداخل . تتولى جميع شؤون عمان الداخلية .

معاهدة السيب :

أن معاهدة السيب هي صك الاعتراف باستقلال عمان . لذلك نرى من الواجب علينا أن نتناول بنود هذه المعاهدة بالشرح وأن نبين مواطن الاعتراف بهذا الاستقلال ومدى شرعيته من الوجهة القانونية :

تتكون المعاهدة من ثمانية مواد . الاربعة الاولى منهـا وضعت لصالح عمان الداخلية . والاربعة الاخيرة انما وضعت لصالح السلطان ولكننا بتدقيق البنود الثمانية نجدها مكرسة بمجموعها لايضـاح قضية الاعتراف باستقلال عمان . وخاصة المواد الاربعة الاخيرة .

بنود المعاهدة :

أولا : أن يكون كل وارد من عمان من جميع الاجناس ، الى مسقط ومطرح وصور وسائر بلدان الساحل ، لا يؤخذ منه زيادة عن خمسة في المائة .

ثانيا : أن يكون لجميع العمانيين الامن والحرية في جميع بلدان الساحل .

ثالثا : جميع التحجيرات على جميع الداخلين والخارجين من مسقط ومطرح وجميع بلدان الساحل ترفع .

رابعا : أن لا تأوى حكومة السلطان مذنبا يهرب من انصـاف العمانيين وأن ترجعه اذا طلبوه منها . وأن لا تتداخل في داخليتهم

هذه الشروط الاربعة للامامة اعترافا باستقلالها

وأربعة شروط للسلطنة هي :

أولا : كل المشايخ والقبـائل يكونون بالامن والصلح مع حكومة السلطان وأن لا يهاجموا بلاد الساحل وأن لا يتدخلوا في حكومته .

ثانيا : كل المسافرين الى عمان لشاغلهم الجائزة والامور التجارية يكونون أحرارا ولا تكون تحجيرات على التجارة ولهم الامن .

ثالثا : كل محدث ومذنب يهرب يطردونه ولا يؤوونه .

رابعا : أن تكون دعاوى التجارة وغيرهم على العمانيين تسـمع وتفصل على موجب ما هو الانصاف بالحكم الشرعي .

حرر هذا في بلد السيب يوم الحادى عشر من شهر محرم سـنة ١٣٣٩ هـ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ م .

قد أتممت ما أتمه الشيخ عيسى بن صالح عنى من هذه الشروط . كتبه امام المسلمين محمد بن عبد الله بيده .

أقول وأنا نائب امام المسلمين محمد بن عبـد الله الخليلي ، انى رضيت الشروط المحررة هنا بتفويض من امام المسلمين ، وأنا عيسى ابن صالح بيده .

هذه هي المعاهدة ببنودها الثمانية وبتواقيع عاقديها .

ان من يدقق في بنود هذه المعاهدة .. تبرز له الاعتراف باستقلال عمان من كل نص من نصوصها تقريبا . لا يعتوره لبس ولا غموض وهو لا يحتاج الى الشرح .

وذلك لان تسليم المجرمين ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، والقبول بقضاء البلد الآخر وفرض الرسوم الجمركية . والتأكيد على قيام السلم والامن بين المنطقتين كلها نصوص لا يمكن أن ترد بين جزئي دولة واحدة .. بل ترد في المعاهدات الدوليه القائمة بين دول مستقلة يعترف بعضها باستقلال بعض .

ففي البنود الاربعة الاولى تعترف حكومة مسقط بوضع حقوقي مستقل لرعايا (عمان الداخلية) ولقوانينها ولقضائها ، كما تفرض الجمارك على بضائعها الصادرة أو الواردة .

أما البنود الاربعة الاخيرة فتعترف بصورة أكثر وضوحا بالوضع الاستقلالي لعمان الداخلية ولقبائلها . فهي في البند الخامس (الاول من الاربعة الاخيرة) تشترط أن لا يتدخل مشايخ وقبائل الداخل في شئون مسقط .

وهكذا يتضح لنا أن حكومة مسقط كانت في شك من أمر استقلالها .. بل كانت في خوف على هذا الاستقلال من القبائل والمشايخ في الداخل فحرصت على ضمان ذلك .. وابرازه في البند الاول . وليس هذا بغريب فان امامة عمان ـ التي تمثل الحكم الشرعي الوحيد في الساحل والداخل ـ لم تعترف قط . ولا اعترف زعماؤها أو ذوى الرأى فيها بأية سلطة مشروعة لحكام مسقط ، لا في الداخل ولا على الساحل . وان الخلاف بين الفريقين ، لا يدور ـ في الحقيقة ـ حول الاعتراف باستقلال عمان الداخلية . بل يدور حول استقلال مسقط ذاتها . والبنود الاربعة الاخيرة توضح لنا هذه الناحية بجلاء .

ولنعد لمعرفة أسباب الحرب التي جاءت معاهدة السيب خاتمة لها ، ففي الكشف عن اسبابها يتضح لنا موقف عمان .. والوضع الحقوقي الراهن لمسقط .

ان أئمة عمان هم الذين أعلنوا الحرب لتحرير الساحل والداخل في عام ١٩١٣ . على أثر بعث الامامة . واكتسابها الصفة الشرعية .

وتمثيلها لعمان ساحلا وداخلا • أسوة بما فعله الامام عزان بن قيس حينما بعثت الامامة في عهده وذلك في النصف الثـــاني من القرن التاسع عشر • وفي كلا العهدين • كان الحكم في الداخل يتوطد بسهولة وتتجه قوات الامام مباشرة لتحرير الساحل واسقاط الحكام في مسقط وضمها الى أرض الامامة • كما حصل فعلا في عهد عزان ابن قيس • وكما حاول الامام راشد في عام ١٩١٥ • ولولا التدخل الاجنبي السافر لتم له ذلك أيضا •

واذا فان استقلال عمان الداخلية هو الامر الثابت والمتفق عليه من الجانبين أما استقلال مسقط فهو موضع الشك ••

والشعب العربي الذي يحكم عمان عن طريق انتخاب الائمة بمحض ارادته واختياره ، لم يكن ليحتاج الى من يعترف باســتقلاله بعكس مسقط التي كانت أحوج ما يكون الى هذا الاعتراف • الذي يمنحها الطمأنينة والأمن •• وهذا ما جرى فعلا بين (١٩٢٠ ـ ١٩٥٤) • أي على أثر معاهدة السيب •

ولهذا نجد حكام مسقط والمقيم الانكليزي الذي يتولى المفاوضـة نيابة عنهم أصروا على النص الذي ورد في البند الخامس والذي ضمن لهم عدم تدخل أئمة عمان في شؤون مسقط •

الفصـــل الثـامن عشر

تدخل الاستعمار الاميركي ضد شعب عمان

قبل أن أنتهي من سرد قصة الاستعمار ، في هذه المنطقة ، وقبل أن أبدأ في سرد فصول العدوان الانـكليزي الاخير •• أود أن أشرح نقطة أخرى لم أتناولها في الفصول السابقة بالبحث ألا وهي قصـــة الاستعمار الامريكي ، ومدى تدخله ضد الشعب العربي في عمان • ولا سيما بعد أن سوى خلافاته مع الاســـتعمار الانكليزي ، ونال حصته في منابع النفط المكتشفة •• وفي الحقول التي ينتظر أن تكتشف •

عرضت عليك أيها القارىء الكريم ، نتفـــا من تاريخ الاستعمار

العالمي في هذه المنطقة العربية ، منذ حركة الاستكشافات حتى اليوم ٠٠ فتناولت الغزو البرتغالي ، ثم الغز الفرنسي ، والهولندي والتركي والفارسي ٠٠ ثم توسعت قليلا في شرح خطط الاستعمار الانكليزي وألاعيبه ودسائسه ، لانه لعب الدور الاول والاكبر ٠٠ ولانه أنزل بالمنطقة أفدح الاضرار ٠ وشرحت بشيء من التفصيل تاريخ المقاومة العربية الباسلة في مختلف أدوارها ٠

ولكنني لا أريد أن أنهي موضوعي هذا، دون أن أشيرالى الاستعمار العالمي الاكبر ـ اليوم ـ الاكبر كثيرا ٠٠ الى زعيم الاستعمار وحامي حماه في العالم ٠٠ ألا وهو الاستعمار الامريكي الذي ركز قواعده في كل مكان من أرجاء المعمورة ٠ واحتل الكثير من مواقع منافسيه بما فيهم الانكليز ٠ ولم تفلت بلادنا العربية الحبيبة ـ طبعا ـ من براثنه الملوثة بدماء الشعوب ٠

فها هي شركاته الاحتكارية ، تمتص دم شعبنا في شواطيء الخليج العربي وفي جزيرة العرب٠٠وفي الصحراء الجزائرية العربية الكبرى وفي مراكش ٠٠ وليبيا ٠٠

وها هي قواعده تربض على صدورنا ٠٠ أو تطرق حـــدودنا من الشمال والشرق والغرب والجنوب ٠

وها هي مؤمراته تحاول جادة ٠٠ مصممة ٠٠ على أن تلف حبالها حول أعناقنا لمحق حركاتنا الوطنية ٠٠ وايقاف انطلاقتنا التحررية ٠٠ وتكبيلنا بقيود الاستعمار التي حطمنا معظمها ٠

بل اننا لنجد آثار أقدام هذا الاستعمار المتكالب ، تجوس ديارنا خفية هنا وهناك ، بمختلف الوسائل ٠ وما قصـــة الاحلاف ومناطق النفوذ ومبدأ ايزنهاور الا أمثلة على ذلك ٠ فاذا ما استطاعت أن تدق وتدا لها في بلادنا ٠٠ تمسكت به واتخذته منطلقا لها نحومكاسب أخرى ٠

ورغم اننا نسمع كثيرا من النزاع والمنافسة ، بين الاستعماريين القدماء والمحدثين خاصة الاستعمار الانكليـــزى والامريـــكى فان هذه المنافسةوالنزاع ، لا يمثلان ـ بالنسبة لنا ـ الا مقدمات للتسوية والاتفاق . مقدمات لا قتسام خيراتنا ونهب ثرواتنا ومص دماءشعبنا

كانت المنافسة بين المستعمرين في القرنين الاخيرين ، تقود الى حروب موت أو حياة .. بين المستعمرين المتنافسين . وتسبب تدمير الخاسرين منهم في هذه المعركة ، وخرابهم بل ونهايتهم أحيانا . كما كان الامر بالنسبة للاستعمار الهولندى والبرتغالى مثلا .

أما الآن، فقد اختلف الامر نسبيا.ولم يعد للمنافسة الاستعمارية بين الدول الكبرى ، ذلك الطابع العنيف ، بل تحولت الى معـــارك ثانوية ، تنتهى على الاغلب ، بالتسويات والاتفاقيـــات ، وتعايش المتنافسين الاستعماريين ، على أساس اقتسام الفريسة .

فما هو السبب الجوهرى الذى قاد الى تبديل جذرى فى علاقات المتنافسين الاستعماريين ، لهذا التبدل ؟

السبب الأول ـ فى نظرى ـ يعود الى ظهور عوامل جديدة ـ على مسرح السياسة الدولية . لم يكن لها من أثر يذكر ، فى القـــرنين الماضيين .. أو لم يكن لها الاهمية التى لها اليوم .

لقد تعاظمت حركات التحرر فى العالم .. وأخـذت شـــعوب المستعمرات تلقي بثقلها في المعركة . وهكذا ظهر منافس من نوع جديد .. منافس أشد خطرا على الاستعمار والمستعمرين جميعـا . منافس لا يرتضى سياسة التسويات .. ولا يقبل بأنصاف الحلول..

وقد أدرك المستعمرون خطورةهذا المنافس ..وخبروا ـ بالتجربة ـ مدى صلابته وتصميمه على النصر .. وانهم لن يتقوا الهزيمة الا بتفاهمهم . وحشد قواتهم المشتركة .. وتنازل بعضهم لبعض عن جملة من الحقوق .. وايجاد تسوية جدية للمشاكل .. والا هزمهم المنافس الجديد .

ولم تخرج قصة المنافسة (الانكلو - أمريكية) عن هـذا المخطط العام . فكانت مجرد مقدمات للتسوية .. وحل المشـاكل .. على حسابنا ..

علاقات أمريكا بمسقط :

وتعود علاقات أمريكا الاولى بمسقط وعمان الى عام ١٨٣٣ . فقد نمت تجارة مسقط فى مطلع القرن التاسع عشر بشقيها الاسـيوى والافريقى ، نموا ظاهرا . لفت اليه أنظار العالم الجديد . فـكانت أمريكا أول من بادر الى الاتصال بحكومة مسـقط واقامة علاقات دبلوماسية تمليها المصالح التجارية معها .

فعقدت أول معاهدة بين أمريكا وبلاد العرب فى سبتمبر عام ١٨٣٣ وهى التى تمت بين مسقط والولايات المتحدة الامريـكية . وكانت المعاهدة تهدف الى ثلاثة أغراض اقتصادية :

أولا : توسيع عمليات التجارة بين ممتلكات مسقط فى أفريقيا وبين الولايات المتحدة الامريكية .

ثانيا : ضمان حرية التجارة وأمنها فى المحيط الهندى .

ثالثا : تنظيم الرسوم الجمركية فى تلك البقعة النائية بالنسبة لامريكا .

وقد ظلت علاقات أمريكا بمسقط والبلاد العربية ضعيفة - بصورة عامة - ولكن ما أن تطورت اقتصاديات أمريكا .. ونمت الطبقـة الرأسمالية فيها . واتجهت أنظارها الى الاسـتعمار . وظهـرت الاحتكارات العالمية الامريكية الكبرى .. وأخذت تبحث عن ميادين الانتاج والاستثمار والنهب فى خارج أمريكا .. وظهرت أهمية النفط العربى فى الربع الثانى من القرن العشرين . وتم لأمريكا أن تمتلك حق استثمار نفط المملكة السعودية .. حتى أخـذت الاحتكارات الامريكية تمتن علاقاتها بامارات الخليج العربى ومشيخاته وتستولى - بمختلف الطرق - على امتيازات التنقيب عن النفط واستثماراته

.. فى كل الشرق الاوسط . ومن بجملة ذلك منطقة مسقط وعمان .

لقد جمع المحتكرون الامريكيون ثروات ضخمة من استثمار البترول .. وظهر - بسبب ذلك أصحاب ملايين - لاول مرة - من عملائهم شيوخ المنطقة وأمرائها وملوكها . وسال لعاب الامراء والشيوخ ، فى المناطق الاخرى المجاورة، وخاصة سلطان مسقط ، وتاقت نفوسهم الى مثل هذا الثراء . فأخذوا يتململون من النفوذ الانكليزى ويضيقون ذرعا به ، لانه تباطأ فى استثمار هذه الثروة ، ولم يستطع اللحاق بالاستعمار الامريكى الطائل الثراء .

وشرع بعضهم يتحكك بالأمريكيين ، ويسهل لنفوذهم أن يتسلل الى بلاده ليسلط عليها جناحيه .

بهذه الوسيلة ، وبهذه الاسباب ، استطاع الامريكيون أن يصلوا الى ظفار وأن يحصلوا من سعيد تيمور على امتياز التنقيب عن النفط واستثماره فيها ، والبحث عن الآثار القديمة فى المنطقة . وذلك فى عام ١٩٣٩ .

ولم يكذب الامريكيون ظن سعيد فقد بدأوا التنقيب فى حصولهم على الامتياز . ولم يكتفوا بمنطقته ، بل امتدت أنظارهم الى كل شبر فى بلاد العرب .. وبدءوا فعلا أعمالهم فى واحة البوريمى عام ١٩٤٩ فكشف الخبراء الفنيون عن حقيقة مخزون المنطقة المغرى من البترول .. وانتشرت هذه الاخبار ..

فطارت أنباؤها صواب الانكليز .. وأخرجتهم عن « رزانتهم » المعهودة . فبدأوا تدخلهم فى شئون البوريمى .. وادعوا ملكيتها ثم احتلوها .

ففى أبريل عام ١٩٤٩ .. وبينما كان فنيو شركة (الارامكو) يقومون بأعمالهم التمهيدية فى المنطقة .. على أساس انها منطقة سعودية ، وبالتالى تدخل ضمن احتكاراتهم . جأر الانكليز بالشكوى . وأعلنوا أن واحة البوريمى تابعة لسلطان مسقط وهى ليست سعودية .

ان الذى يهم الشركات الانكليزية من الموضوع ـ طبعا ـ لم تكن تابعية البريمي . أكانت للسعودية أم لمسقط . بل ان الذى كان يهمها : عائدية البترول .. ومن يستثمره ؟ أهم الانكليز .. أم الامريكان ؟ وبما أن الشركات البريطانية قد اختصت ـ دون غيرها ـ بنهب ثروات مسقط . فهي أولى من الشركات الامريكية فى نهب بترول البريمي أيضا .

وعلى أساس هذا المنطق ساقت جيوشها فاحتلت البريمي . وطردت موظفي شركة الارامكو منها .

ولم يكن منطق الامريكان يختلف عن منطق الانكليز .. وعلى أساس تعيين ملكية استثمار البترول بالاستئثار بنهبه ، قامت المنافسة الضارية بين الدولتين .

ولكننا أعطينا هذه المنافسة ، أكثر مما تستحق من الاهتمام .. وعلقنا على نزاع الدولتين آمالا .. خيالية .. فى السنوات العشر الماضية .

ولسنا هنا فى معرض التخفيف من أهمية النزاع أو نكرانه .. بل في صدد الكشف عن طبيعته لعدم الوقوع فى تقديرات خاطئة ، واستنتاج نتائج وهمية تضر فى قضيتنا العامة وتوهن كفاحنا . كما سبق وحصل ..

فمما لا شك فيه أن الهلع قد ملأ قلوب الانكليز .. حين بدأ الاستعماريون الامريكيون يتقدمون باصرار لاحتلال مواقعهم الواحد تلو الآخر ..

لقد خرج الامريكيون من الحربين العالميتين الاولى والثانية أكثر غنى وأكبر قوة .. وأشد طمعا . وهذا هو الأهم .. فمن البديهي اذن أن يجتذبوا معظم عملاء بريطانيا . وأن يشتروا أسهمها .. وأن يسيلوا لعاب الطامعين بالثراء السريع أكثر مما تستطيعه امبراطورية عجوز ..

لقد تمكن الامريكيون فعلا ، من اقناع سلطان مسقط بمنحهم حق التنقيب عن البترول في زاوية من زوايا منطقته (في ظفار) كما قدمنا فأغدقوا على السلطان الشره أعطياتهم ، فأسروه .. ومن الممكن أن يأسروا غيره بهذه التميمة السحرية ..

ان خوف الانكليز من تغلب الاستعمار الامريكي . كان خوفا حقيقيا وان المنافسة والنزاع بين الفريقين لم يكونا وهما من الاوهام .

ولكن المنافسة والنزاع ، ظلا – دائما – محصورين في نطاق معين ضيق . لم يتعدياه قط . نطاق المحافظة على مصلحة الاستعمار – بصورة عامة واضعافه اضعافا جديا .. والحيلولة دون أن تسبب المنافسة تقوية أعدائه ، على حسابه .

ان ابقاء المنافسة – وهذا ما نريد التأكيد عليه – في حيز يجعلها مجرد مقدمات لتسوية استعمارية جديدة بين المتنافسين .. أو تقسيم جديد للمصالح الاستعمارية بينهم .. ليس الا .

لقد خدع الكثيرون . وظنوا : أن المعركة الدائرة بين الوحشين الاستعماريين (الانكليزي والامريكي) ، لا بد أن تنتهي بأن يثخن كل منهما الآخر بالجراح . فتستفيد القضية العربية من وراء ذلك ، وتتخلص من الاثنين .

لا شك أن تقاتل الاعداء يفيدنا .. واننا يجب أن نستفيد ، ما أمكن من مثل هذا الظرف اذا حدث .. ولكن على شرط أن لا نغمض أعيننا عن حقيقة أخرى أكثر أهميـــة .. الا وهي التسويات التي أصبحت اليوم نتائج حتمية لكل نزاع استعماري بين الطامعين تقريبا

ولا أدل على ذلك .. من أن أحلام المتفائلين عنـــدنا ، أكثر من اللازم ، سرعان ما تبددت ...

فقد انتبه الوحشان الاستعماريان .. الى حقيقة الخطر الآخر .. الذي هدد كليهما .. خطر النهوض الوطني .. في بلاد العرب .. وفي العالم كله ..

خطر المد الثوري العارم في آسيا وأفريقيا ٠٠
خطر الجبهة العالمية القوية المعادية للاستعمار وعلى رأسها جبهة دول الحياد الايجابي ٠٠
وأخيرا ٠٠ أدركا خطر القومية العربية ـ في يقظتها الثورية الجديدة ٠
خطر قيام الجمهورية العربية المتحدة ٠٠ وتسلمها قيادة معارك الكفاح العربي ضد الاستعمار في مشرق الوطن ومغربه ٠
فتناسيا خلافاتهم ٠٠ واستطاعا بسهولة ، ان يكتشفا طريقة ، لاقتسام ثروات المنطقة المتنازع عليها ٠٠ وتمت التسوية الاستعمارية ـ على حسابنا كالعادة ٠
ولم يعد ثمة ما يمنع الامريكيين من تناسي الاحقاد المصطنعة بينهم وبين الانكليز ٠ ومن ان يقفوا الى جانب شركائهم ـ عالميا ـ ضد شعب عمان العربي المجاهد ٠
ففي ٣ أغسطس من عام ١٩٥٧ ، وبعد ان اشتد العدوان الانكليزي الغادر على عمان ٠٠ وبعد ان بدأت القذائف والصواريخ والمدافع الثقيلة والطائرات النفاثة تدمر وتحرق ٠٠ وتبيد معالم الحياة في عمان ٠
وبينما كانت الامة العربية في غليان وثورة ضد المستعمرين من الخليج العربي حتى المحيط الاطلسي ٠٠ وبينما كانت وفود آسيا وأفريقيا ترفع أصواتها في أروقة هيئة الامم المتحدة ساخطة محتجة ٠ وتحاول في الوقت ذاته رفع القضية العمانية الى مجلس الامن ٠

وقف دالاس وزير خارجية امريكا ليقول :

« ان الولايات المتحدة الامريكية لا تعرف كثيرا عن قضية عمان ٠٠ ونحن ننظر الى هذه المشكلة على انها مشكلة محلية ٠٠ ونأمل ان تحل سريعا » ٠

أي ان دالاس كان يتمنى ان يتم قضاء الانكليز السريع ـ بمجازرهم الوحشية التي تناقلتها وكالات الانباء ـ على مقاومة شعب عمان ، وتصفية نضاله ٠
ولم يكتف دالاس بهذا التصريح الذي ينضح بالسم ٠٠ والتحيز ، بل أخذت الولايات المتحدة الامريكية ، تبذل جهودها الكاملة لتحول دون عرض مسألة عمان على مجلس الامن الدولي ٠ حتى لا تثير الامم والشعوب ضد شريكها الاستعمار الانكليزي ٠

ان أمريكا لم تعر أي اهتمام ـ طبعا ـ لاخبار المجازر البشرية التى ارتكبتها انكلترا في مدن عمان • ولا التفتت الى الاعمال الوحشية التى قام بها الجنود الانكليز والتى أشار اليها نداء امام عمان ، الموجه الى الدول الكبرى ومنها الولايات المتحدة الامريكية •

بل انتبهت بسرعة •• وبلؤم •• الى موقف الدول العربية المنتظر •• وأبدت تخوفها من أن تطول المعركة •• فتتيح للدول العربية المتحررة ان تساهم في المعركة الوطنية لانقاذ عمان • وهذا الاحتمال هو ما كان يثير المخاوف الامريكية دون غيره •

فانكب كبار المسئولين الامريكيين من مساعدي دالاس على دراسة النداء وبحثه •• وتخمين الاحتمالات التى قد تثيرها في العالم العربي ••

كما صرح متحدث أمريكي رسمي في اليوم ذاته فقال :

« ان أمريكا ، ترقب ـ بقلق شديد ـ تطورات الموقف في عمان • وان الرأي السائد في واشنطن : هو ان ثورة عمان أخطر بكثير مما كان متوقعا • وان أمريكا تخشى ان يصبح اشتراك الدول العربية الاخرى ـ في هذا النزاع ـ أمرا لا مفر منه » •

لقد تساءل الشرفاء ـ في كل مكان ـ عن الثمن الذى تقاضته أمريكا لقاء مساندتها للجرائم الاستعمارية التى يقترفها الانكليز في عمان يوميا !! •• ولم يكتفوا بمعرفة ما كان قد منح من امتيازات البحث عن البترول والآثار واستثمارها في ظفار . للشركات الامريكية •

ولم يطل ـ بهؤلاء الانتظار ـ فقد كشفت الانباء عن التسوية الكاملة بعد قليل من الزمن •• تلك التسوية التى تمت بين انجلترا وأمريكا مباشرة •• والتى تقاسم ـ فيها الطرفان ، الحصص في استثمار النفط والمعادن الاخرى •

ولم يكتف الامريكيون بما حصلوا عليه من شركائهم الانكليز •• فأجبروهم على ارغام صنيعتهم (سلطان مسقط سعيد بن تيمور) ان يوقع على معاهدة مباشرة بينه وبين الامريكيين ، لتؤكد الامتيازات والتسويات السابقة •

نستخلص من ذلك أن طبيعة الاستعمار العالمي واحدة •• ومصالحه واحدة •• لذلك نراه يدعم بعضه بعضا • ولا يسمح

للمنافسة والنزاع القائمين بين دوله أو احتكاراته ، ان تحطم حلقات الاستعمار الاساسية • فتضعفه في النتيجة •• وتقوى الجبهة المعادية له •

ان عهد المنافسة الاستعمارية القديمة •• التي كانت تقوم على أساس تدمير المنافس القوي لبقية المنافسين وسحقهم قد انتهت • وجدت ظروف عالمية جديدة • من أهمها ما سبق وأوردناه •• عن تعاظم حركة التحرر والاتفاق عند شعوب المستعمرات والبلاد المتأخرة • ودخول القومية العربية بنضالها الثوري التقدمي مسرح التاريخ العربي والعالمي •• كمارد لا يمكن قهره •• أو تأخير زحفه المقدس •

ان الاستعمار العالمي •• لن يسمح للخلافات الداخلية - في ظرفه الجديد - ان تهدد مراكزه الكبرى بالدمار الابدي •

وهذا ما يلزمنا على أن نضع في حساباتنا - دائما - اننا سنكتشف المستعمرين المختلفين المتنافسين وقد اتحدوا فجأة ضدنا • فسند بعضهم بعضا • وخاضوا المعركة الفاصلة مشتركين •

الفصل التاسع عشر
العدوان البريطاني في عام ١٩٥٥

مقدمات العدوان في عهد الامامين الاخيرين :

ظل الامام محمد بن عبد الله بن خلفان الخليلي يشغل منصب الامامة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٥٤ حيث توفي وأنتخب بدلا عنه الامام غالب بن علي الهنائي • وهو الذي يقود اليوم معركة عمان الباسلة ضد الانكليز بوعي وبطولة •

لقد سبق وذكرت في الفصل السابق ان الظروف العالمية وخاصة الحرب الكبرى الاولى أجبرت الانكليز وأجيرهم سلطان مسقط على الرضوخ وتوقيع معاهدة السيب التي اعترف فيها الفريقان باستقلال عمان •• فالمعاهدة بالنسبة للانكليز مجرد هدنة •• مرحلة حرجة يخفضون فيها رؤوسهم للعاصفة ، فاذا ما مرت العاصفة ، عادوا للوقوف على قدميهم وتابعوا طريقهم •

وهكذا كان بالنسبة لعمان •• معاهدة السيب معاهدة محترمة طالما هم ضعاف • أما اذا انتهت الحرب وخرجوا منها ظافرين وأمكن

لهم أن يجمعوا قواهم حول عمان تتحول المعاهدة عندئذ الى قصاصة من الورق ·· ويتابعون عدوانهم الغادر وكأن لم يحدث شيء ·· فلا بد اذا ان نتبين فى الفترة الفاصلة بين عامى (١٩٢٠ و١٩٥٥) تأهب الانكليز للانقضاض على عمان ·· أو لا بد لنا ان نكتشف على الاقل مقدمات العدوان ·· الغادر ·

ولكن لا بد لنا من ان نتناول نقطة أخرى فى الموضوع ·· وهى ان ظروف عام ١٩٢٠ قد تبدلت فى عام ١٩٥٥ ·· تبدلت جذريا فى عمان ·· وفى العالم العربى ·· وفى العالم أجمع ·

ففى عمان ظهر البترول ·· واحمرت عيون الدول الطامعة بنهبه ·· وسال لعابها عليه ··

ففى مطلع عام ١٩٢٣ رفع السلطان تيمور الى القنصل البريطانى فى مسقط كتابا يرد فيه على كتاب أرسله القنصل الى السلطان فى أواخر عام ١٩٢٢ · وقد تعهد السلطان فى كتابه : بأن لا يستغل البترول الذى قد يعثر عليه فى أية بقعة تدخل فى نطاق أراضيه ولا يمنح حق استغلاله لأحد دون استشارة الوكيل السياسى ودون موافقة حكومة الهند الانكليزية ·

وهكذا برز الى مسرح السياسة فى عمان عامل جديد هو البترول ·· والسياسة البترولية ·· والتوسع البترولى ·· وما شئت من الالفاظ المماثلة ·

وفى سنة ١٩٢٥ منح السلطان لشركة دارسى الانكليزية حق التنقيب عن البترول والغاز الطبيعى · وغيرها من المعادن مع استغلالها ولما طال عليه الانتظار دون ان يفعلوا شيئا منح للشركات الامريكية امتيازا آخر للبحث عن البترول فى جزء آخر من أراضيه (فى ظفار) فجن جنون الانكليز ·· واشتدت المنافسة بينهم وبين الأمريكيين ·· ثم ظهرت الدراسات المتعلقة ببترول البوريمى ·· واشتد النزاع على الواحة المهجورة ·· بين السعوديين ومن ورائهم أمريكا ·· وبين سلطان مسقط ومن ورائه انكلترا ·· وهكذا برز لعمان ومسقط وظفار والشارقة ورأس الخيمة والبوظبى والبوريمى ·· أدوار جديدة ·· وأهميات حديثة لم تكن لها فيما مضى ·· فتعدل ـ الى حد ما ـ موقف المستعمرين من هذه الاماكن واشتد حرصهم لنهب ثرواتها ··فوضع كل مستعمر فى حساباته ·· الخطط التى تحقق له هدفه ·

أما بالنسبة للوطن العربي فقد تبدل فيه كل شيء تقريبا • وخاصة بالنسبة لبريطانيا •

فقد تنبهت الامة العربيـة وانطلق ماردها السجين عن عقـالـه • وتعاظم نضالها الثوري • وتحولت وحدة العرب من دور الاحلام الى دور التحقيق والتجسد •• وولدت الجمهورية العربية المتحدة ، قائدة النضال التحرري في بلاد العرب • وبعث البطل الذي استقطب حوله أشرف القوى في المجتمع العربي المتيقظ الطموح • وشعر العرب من أقصى المحيط الى الخليج وعمـــان ومن طوروس وكيليكيا حتى عدن وسقطرت بحقيقة هذا المارد البطل •• يبعث وينمو في عقل كل فرد عربي •• وفي وعيه وارادته •

وأما بالنسبة للعالم الخارجي فقد تطور كل شيء أيضا •• وخاصة بالنسبة للاستعمار الانكليزي ••

تحررت الهند وباكستان وبورما وسيلان ••

ونمت حركة التحرر والانعتاق في كل مكان من العالم •

وتنبهت الشعوب الى أخطار الاستعمار وويلات المستعمرين •• لا سيما اذا تعاونوا ووحدوا جهودهم ، على اختلاف جنسياتهم ضد الشعوب الطامحة الى الحرية •

واكتشفت الشعوب أهمية تعاونها واتحادها للقضاء على جرثومة الاستعمار ••

فدفعت كل هذه العوامل الاساسية بالاستعمار الانكليزي المهزوم في كل مكان •• لتمكين براثنه في عنق جنوب شرق جزيرة العرب•• وحرصه على مد براثنه الى المناطق الداخلية المستقلة منها • ليتخذ منها معقلا أخيرا •• وقلعة يدفع منها العدوان •• وميدانا لاستغلال البترول والثروات الاخرى •

وفي هذه الفترة الممتدة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٥٥ •• استطاع الانكليز أن يستخدموا سلطان مسقط كالدمية في أيديهم لتحقيق هذه الاغراض الخبيثة •• فلا بد لنا من العودة أيضا لدراسة تاريخ عمان ومسقط في عهد الامامين الاخيرين واكتشاف أساليب المستعمرين وخادمهم سلطان مسقط •• مع القاء النور على سلوك الامامين في الوقت ذاته :

الامام محمد بن عبد الله الخليلي :

ينتمي الامام محمد بن عبد الله الى بيت الخليلي المعروف والذي يتصل نسبه باليعاربة .

تم في عهده صلح السيب ـ كما سبق وذكرنا ـ بموافقة الانكليز . الذين كانوا أكثر من وسيط لانهم قادوا ـ فى مسقط ـ حملة مقاومة الامامة . وابتكروا حملة الدسائس والمؤامرات . واشتركوا عسكريا فى رد قوات الامام عن مسقط ومطرح .

ساد فى عمان فترة هدوء امتدت أربعـــة وثلاثون عاما ، انصرف فيها الامام الى شئون امامته ينظمها ويحميها . ولكن الهدوء الظاهرى كان يخفي وراءه كثيرا من دسائس الانكليز ومكر السلطان سعيد بن تيمور الذى خلف أبيه ولكنه فاقه في الخيانة والغدر .

فقد ارتمى السلطان سعيد نهائيا فى أحضـــان الانكليز وسلمهم قياده بصرف النظر عن كل اعتبار آخر . وسلطهم على منطقة نفوذهم . ولم يعد هو ليتدخل فى أبسط الامور ، خلافا لمشيئتهم .

أما نشاطه الشخصي فقد صرفه لتدبير الدسائس ضد شعب عمان الباسل ـ محاولا بذر بذور الفرقة واثارة النزاعات بين القبائل مطبقا سياسة أسياده الانكليز (فرق تسد) . لقد أدرك أن استمرار اتفاق القبائل واتحادها .. وتحقيق وحدة الشعب حول أئمته ومثله القومية كفيل بالقضاء على كل أمل له فى اذلال الشعب العربي فى عمان مرة أخرى .

لقد حاول أبوه تيمور سياسة مماثلة تقريبا الا وهي ســـياسة الاغتيال .. فأرسل عصابات من المجرمين اغتالوا أكثر من سبعين رجلا من أشرف العناصر وأشدها تعلقا بالامام . ولم يجن من عمله هذا غير الخزى ولعنة الاشراف والمؤمنين من عرب عمان ..

فلما عمد سعيد الى سلوك مشابه .. أصابه الفشل .. ولم يجن بدوره غير اللعنة والاحتقار .. وظل شعب عمـــان أمينا على مثله وتقاليده متحدا على أعدائه .. حريصا على استقلاله .

حاول سعيد أن يصل الى هدفه في اذلال شعب عمان عن طريق الرشوة .. فأنفق الأموال الباهظة وأعطى الاعطيات الكبيرة الى من لا يستحقها .. فى حين يعيش الشعب العربى فى سواحل عمان على الفاقة والجهل والمرض .. فلم يجن من هذه الوسيلة غير اللعنـــة والغضب أيضا .

وعندما توفي الامام محمد طار السلطان والانكليز فرحا . وظنوا ان فرصتهم قد حانت .. فخيب شعب عمان الباسل ظنونهم ولطمهم حين انتخب الامام الجديد غالب بن علي قبل ان يدفن الامام الراحل .. وتبخرت أحلامه وطاش صوابه فلجأ الى أسياده الانكليز يطلب منهم استخدام القوة .. لتحقيق أحلامه .. أو قل أحلامهم .. فما هو — في الحقيقة وواقع الامر — الا آلة خرساء في أيديهم . وخادما ذليلا من أحقر خدامهم .

الامام غالب بن علي الهنائي :

ينتمي الامام غالب بن علي الى قبيلة بني هناء التي تنتسب — بدورها — الى اليعاربة أيضا . انتخب في آخر شعبان عام (١٣٧٣ هـ و١٩٥٤ م) بعد وفاة الامام الخليلي وقبل ان يدفن .

والامام الحالي هو القائد الاعلى للمجاهدين العمانيين الابطال .. يقود المعارك . وينظم المقاومة .. ويهيىء الاسلحة والاغذية والالبسة والاموال .. ويلم شتات الشعب حول المثل القومية والدينية .. وهو بعيد عن عاصمته وعن بيته .. يتنقل مع المجاهدين بين المعاقل الجبلية ..

كانت بريطانيا تنتظر موت الامام السابق .. لتحقق أهدافها الجديدة .. في فترة موته حيث يتاح لها ان تثير النزاع والفوضى ، خلال عملية الانتخاب ، فتنقض على عمان وتحتلها . وقد هيأت الجيوش والمعدات والقواعد .. لهذا الغرض . ولكن شعب عمان كان أبرع منها . فقطع عليها جميع الخطوط .. واستبق الحوادث فانتخب امامه الجديد .. ولم يسمح للخلاف أو النزاع أو الفوضى أن تدخل صفوفه .

لقد نبه هذا الفشل كوامن الحقد والانتقام في نفوس الانكليز .. وأقنعهم أن أسلحتهم القديمة قد انثلمت .. ولم يعد لها من وزن في المعارك الجديدة . لهذا عزمت على أن تكشف القناع عن وجهها وان تخوض معركة مكشوفة ضد استقلال عمان .. قبل ان يتقوى الامام الجديد .. ولم يسمح للخلاف أو النزاع أو الفوضى أن تدخل صفوفه .

كانت بريطانيا — في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية .. تتحسس مواقع أقدامها في كل مكان من الامبراطورية . فأدركت ضعف مواقعها في الهند ومصر والسودان .. والعراق .. فوجهت أنظارها الى سواحل عمان والخليج لتتخذ منها معقلا يلجأ اليه نفوذها

التداعي ·· وقلعة تركز فيها قواتها المهزومة · بحيث تستطيع الاعتماد عليها في الازمات العالمية الكبرى ·

يضاف الى ذلك ان أهمية البترول قد برزت في العالم كله وأصبحت استراتيجية البترول توجه الدول ·· وتسبب الحروب ·· وبما انه قد تأكد وجود البترول في عمان ومسقط والسواحل العربية الاخرى ·· بغزارة تغري الطامعين · وبما ان دولا كبيرة قوية قد نزلت الى ميدان المنافسة كأمريكا · وصممت على امتلاك المنابع المهمة للبترول في المنطقة ·· وبما ان أمريكا أغنى من الانكليز وأكثر قوة ومغامرة واستعدادا · وأصبح لا بد للانكليز ان يغامروا بدورهم ·· ولو أعلنوا الحرب لحماية الآبار والمنابع الباقية ·

وبما ان الحركات التحررية العربية ·· والانتفاضات الوطنية لم تعد خافية ·· او سرية ·· أو ضعيفة ، بل امتد لهيبها ـ هنا وهناك ـ من وطن العرب ، وأخذ يهدد ـ جديا ـ باجتثاث الاستعمار وأعوانه من المنطقة اجتثاثا ·

فقد عضت بريطانيا على مناطق نفوذها بالنواجز ·· وكشرت عن أنيابها السامة ، وكشفت عن أحط ما لديها من الوسائل لمحاربة هذه القوى المتجمعة في الافق · والتي تهدد مصالحها بالزوال ·

ونظرا لمرونة سياستها ، استطاعت ان تسوى معظم خلافاتها مع المنافس الدولي الاقوى ـ أمريكا ـ بعد ان اقتسمت معها هذه المصالح ·· والتفتت الى شعب المنطقة لتسوى حسابه بطريقة أخرى ·· بالنار والصواريخ واللهب ·· فتقضي ـ بذلك ـ على خطره ·

وفي سبيل ذلك أنشأت عددا من القواعد البحرية والبرية والجوية ·· ومن هذه القواعد المتناثرة في وطن العرب الواسع أو في المناطق الاجنبية المطلة على سواحله · بدأت تطلق ألسنة العدوان ·· لتلهب ظهور المقاومين العرب في عمان ·· وفي غير عمان ·

وبريطانيا لا تتردد عن القيام بأحقر أدوارها ضد الشعوب التي تحكمها ان استطاعت · وقد برهنت الحوادث ـ فعلا ـ خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها على ذلك · يضاف الى ما تقدم ان الحرب الاخيرة قد أكدت أهمية المواقع العربية في جنوب شرق جزيرة العرب وخطورتها بالنسبة لتحرر العرب من جهة ·· وبالنسبة لمواقع دفاع المستعمرين من الجهة الاخرى ·

ان القواعد والمطارات التى تقع فى الارض العربية ، والتى بنيت بالسواعد العربية عن طريق السخرة ·· فجبلت أرضها بدماء العمال العرب وعرقهم · والتى ضمت بين طياتهـــا آلاف الذين ماتوا تحت السوط ·· فى أحقر ظروف للعمل واشدها قسوة · انما أقيمت رغما عن ارادة الشعب العربى ·· وبقصد اذلاله ، وكسر شوكته ومحو مقاومته ·

والحكومة الانكليزية امعانا منها فى افقار المنطقة وتعريضـــها للمجاعات ، فرضت حول عمان حصارا اقتصاديا محكما · لعزلها عن العالم العربى · ولابعادها عن أحداثه الكبرى · ولمنعها من الاستفادة بمنجزات حضارة الغرب وعلومه · ولافقار شعبها بتهديم صـــناعته وتجارته وزراعته · ولاضعافه ماديا بمنع ايصال الاسلحة اليـــه وتشديد البحث عن الاسلحة ومعاقبة المتاجرين بها ·

فلما هب الامام الباسل غالب بن على ليحارب هذه الســـياسة الماحقة · وليفكك قيودها ·· وأبى قبول هذا الوضع الذى يراد به اجبار عمان على الركوع على ركبتيها أمام الوحش الاستعمارى الطامع ·

وشرع الامام ــ بدافع من وعيه وارادته الحديدية واخلاصه ــ يتصل بالعالم العربى المحيط به ، وبدأ يفكك طوق الحصار من حوله ، بعزم واصرار · ويمكن لشعبه من أن يستمد العون والقوة من أشـــقائه العرب ·

جن جنون الاستعمار الانكليزى · فكشف عن نواياه الاجرامية ، مرة واحدة ·· ودفع بخادمه الذليل سعيد بن تيمور لمناهضة الامامة ·· والتطاول عليها ·· واتهامها بأنها تتصل بالاجانب ·· (ويقصد الخائن سعيد بن تيمور بالاجانب) الشعب العربى من المحيط الى الخليج ·

أما ان سعيد بن تيمور وعائلته قد ترعرعوا فى بيوت الذل والعبودية ·· وظلوا يتمرغون على أقدام الاجنبى من الهند ·· الى المحد ·· ويعفرون جباههم على أعتابه · فلم يكن يثير أى اهتمام لديه ··

وهكذا فان محاولة الامام الشجاع ·· الخروج بشعبه العربى المؤمن من عزلته ·· وذلك عن طريق توثيق علاقات الامامة بجامعة الدول العربية · واقامة نواة جيش عربى حديث وتسليحه ·· كانت من أهم العوامل التى أخرجت الاستعمار عن طوره · ودفعته الى القيـــام

بعدوانه المبيت الاثيم ، مستخدما أحط الوسائل وأكثرها وحشية وقسوة • مستهينا بقيم هيئة الامم المتحدة •• ومبادئها • وبشرعية حقوق الانسان •• وبمبدأ حق تقرير المصـــير •• وبكل القوانين والقواعد التى أملتها الحضارة •

العدوان البريطاني الغادر عام ١٩٥٥ :

بعد فوز ثورة مصر التحررية في يوليو ١٩٥٢ ، التى أطلقت ٢٥ مليون عربى من أرض الكنانة من عقالهم •

وبعد محاولة تأميم البترول الايرانى •• وظهور البترول العربى

وبعد تفكك الامبراطورية البريطانية •• وهزيمتهـــا فى شتى المواقع •

وبعد تعاظم حركة التحرر والانعتاق ومكافحة الاستعمار فى العالم•

وبعد ظفر القومية العربية •• وسريان شعاراتها المحببة الى أعمق بقاع الوطن وأبعدها •

وبعد خروج امام عمان من عزلته وتوثيق علاقات شـــعبه بالامة العربية •

بدأت بريطانيا تنتبه الى ما يجرى حولها • وتتبين مواقع أقدامها • وتبحث بيأس وحقد •• عن ملاجىء جديدة تلملم فيها قواتها المشتتة•

لقد سددت الامة العربية •• وشعوب آسيا وأفريقيـــا ضربات قاصمة موفقــــة الى الاستعمار ، بعد انتهـــــاء الحرب ، وخاصة الى الامبراطورية البريطانية وحلفائها الامريكيين والفرنسيين •• وأخذت المصالح الاستعمارية تنهار فى هاتين القارتين العظيمتين بفضـــل حركات التحرر العارمة ، فى العالم العربى •• وفى الصين والهند واندونيسيا ، وفى القارة السوداء الملتهبة •

•• وطردت مصر انكلترا من القناة •• وألغيت القاعدة البريطانية فيها •

فأذهلت هذه الاحداث المتلاحقة الخطيرة بريطانيا وأربكت مواقعها فى الشرق الاوسط •• فمالت الى السقوط •• والزوال •• فأخذت تبحث عن رد استعمارى يوقف هذا الخطر •• أو يحدد مناطق انتشاره • ويسند المراكز الباقية للانكليز •

وبحث الانكليز عن مواقع جديدة ينقلون اليها قواتهم المطرودة من

مصر ·· لكى يتخذوا منه مراكز انطلاق عدوانية تعوض عن قاعدة القنال · فتوجهوا الى عمان ·· فى جنوب جزيرة العرب ·· وتوجهوا الى قبرص فى البحر المتوسط ·· وخيل اليهم انهم استطاعوا ان يكتشفوا الحل ·· وان يطوقوا مصر والعالم العربى ·· وحركة التحرر العارمة فى المنطقة من الشمال والجنوب ·

وكانت ضربة الانكليز الاولى الغادرة ، موجهه الى عمان المستقلة البطلة · كمحاولة يائسة لتحقيق نصر سريع رخيص ·· يعيـــد للاستعمار الانكليزى اعتباره الملطخ بالوحل ، فى بلاد العرب ·

فكان العدوان الغادر فى عام ١٩٥٥ ·

التمهيد للعدوان :

فى عام ١٩٥٣ ، كانت شركة البترول الانكليزية قد بدأت أعمالها التمهيدية للتنقيب عن البترول فى مسقط · فبدأ الاستعمار يتخفى وراء هذه الشركة ويتستر بمصالحها ·· لتحقيق الاجراءات الممهـدة للعدوان الخبيث بدون ان تثير تلك الاجراءات ضجة محلية أو عالمية · فقد زعمت الشركة انها لا تستطيع العمل بدون جيش يحميها · فأخذ جهاز الاستعمار الانكليزى وجيشه القديم والحديث يخطون معها نحو الداخل خطوة بعد خطوة ·

زعمت الشركة انها بحاجة الى جيش خاص بها ·· تتولى انشاءه حديثا · فوافق سلطان مسقط على طلبها · وبدأت بتنفيذ ذلك فى مدينة (فلج القبائل) الكائنة على أبواب مسقط · وسميت القوة الجديدة بـ « قوة ميدان مسقط وعمان » ·

وفى شهر يوليو من سنة ١٩٥٣ وصل الى مسقط ضابط بريطانى برتبة ميجر هو (ماك جل) يحمل رسالة من السلطان سعيد بن تيمور الى نائبه شهاب بن فيصل يأمره بالتعاون مع الضابط المذكور لتكوين معسكر ·· ونواة جيش متنقل يحمى الشركة · وبدأت البواخر تنزل العتاد والذخيرة ·· وتكون الجيش ثم ركز أعمــاله فى بلدة (فلج القبائل) الآنفة الذكر ·· وأخذ الضباط الانكليز يتواردون تباعا الى مسقط بحجة تدريبه ·

رأى المستعمرون ، انه لا يمكن السطو على ثروة عمان ذات التاريخ الاستقلالى المجيد الا بالقوة والقهر ·· والجيش الجديد يحقق للاستعمار ذلك ·

ورأى المستعمرون ان بناء القلعة الجديدة في عمان ، لمقاومة الحركات الوطنية العربية ، ولم فلول جيوش الامبراطورية المفككة ‥ لا يتم الا بالقوة والقهر ‥ وهذا الجيش الحديث ، يحقق لهم ذلك أيضا ٠ اذا فليبذل المال بسخاء ، لتقويته وتسليحه ‥ وهكذا كان ‥ فان هذا الجيش الذى أنشىء بحجة حماية الشركة ‥ هو الذى تقدم مع قوات مسقط ومع القوات الانكليزية الاخرى لاحتلال نزوى عاصمة الامامة بعد سنتين من تأليفه ٠

خطط الغزو :

كانت الخطة التى وضعها المستعمرون وأعوانهم ، خطة طويلة الاجل ، ومرسومة بدقة وأناة ‥ لا لتنفذ دفعة واحدة ٠ بل ليتم تنفيذها على مراحل ‥ وفى الاوقات المحددة ‥ بحيث تحقق للمستعمرين ما يريدون ٠

ففى أوائل عام ١٩٥٤ ، بدأت المرحلة الاولى لخطة المستعمرين ‥ اذ أمر الجيش الجديد ، بالانتقال بحرا الى ميناء صغير يقوم في الجنوب ‥ ويجرى انشاؤه على عجل ‥ يسمى (رأس دقم) ٠

كما نقلت الى هناك جميع المعدات والاسلحة والذخيرة ٠ ووصلت البواخر الانكليزية تحمل الباقى من العتاد للجيش ٠

وفى هذا الميناء ـ بالذات ـ تم تدريب الجنود ـ على عجل ـ وأصبح هذا المقر مركزا للقيادة العامة ٠ وأخيرا ، وبعد ان تم التدريب ، بدأ الانكليز ينتقلون الى تنفيذ المرحلة الثانية ٠ فزحف ثلثا الجيش بالسيارات ، يحمل عتاده الى عمان الداخلية ٠ فاحتل مدينة عبرى عنوة ، بدون سبب ، وبدون سابق انذار أو مقدمات ٠ فى أواخر عام ١٩٥٤ ٠

وبعد ان تم لهم احتلال مدينة عبرى شرعوا يهيئون الظروف للانتقال الى تنفيذ المرحلة الاخيرة الا وهى الزحف العام ضد الامامة ٠

الزحف الغادر على عمان الداخلية :

فى ١٥ ديسمبر ١٩٥٥ ، وبعد ان تهيأت للانكليز ظروف الغزو زحفوا بكامل قواتهم الى العاصمة نزوى ، بدون سابق انذار ٠ وبصورة مفاجئة غادرة ، مستخدمين فى هجومهم الصواريخ والطائرات وجميع آلات الدمار ٠ فاحتلوها بعد مقاومة بطولية ، أبداها شعبها الباسل ٠

لقد كان الزحف العدوانى المفاجىء عاما ، وفى وقت واحد . فقد هاجم الانكليز عمان من خمس جهـــات ، ليبلبلوا قوات الامامة . وليشتتوا أنصارها . ولكى يربكوا خطط دفاعها .

ولم يكتف المستعمرون بكل ما وصلوا اليـــه من عدوانهم . بل طمحوا الى المزيد من السيطرة وخنق الحريات فاقاموا فى كل منطقة من أرض عمان حامية انكليزية . وجعـــلوا عبرى مركز الحاميـــات القيادى ، بعد مسقط . فوضعوا حامية فى (نزوى) وثانيـــة فى (سمايل) وثالثة فى (بدبد) وأخرى فى (طوى سميم) . وسلموها ـ بالاضافة الى مهام الجيش ـ مهام الشرطة المحلية . ليحموا ظهور القوات العسكرية الاساسية ، وليمكنوا موظفى الشركة من تنفيـــذ أعمالهم .

ولم يكن الهجوم العدوانى المباغت على عمان خطة مستقلة ، عن الخطط العدوانية الانكليزية الكبرى ، التى ينفذونها فى مختلف أجزاء العالم العربى . بل كانت جزءا مهما من تلك الخطط ، تربطها بها أوثق الروابط .. ففى الوقت الذى كانوا يهاجمون فيه عمان ،كانوا يهيئون قواهم فى البحر المتوسط للقيام بعدوان آخـــر ضد الامة العربية .

وقد انكشفت هذه الخطة الموحدة حينما هاجموا ـ مع حلفائهـــم ـ بورسعيد والقنال بعد عشرة أشهر ونصف فقط من بدء العـــدوان على عمان . وهكذا انكشفت جوانب المؤامرة فى الشمال وفى الجنوب، وتأكد لكل عاقل ان معركة الاستعمار ضد الامة العربية ، معـــركة واحدة .. ولكنها متعددة الجوانب . وما زحف الانكليز القاذر على عمان ، والعدوان الثلاثى الاثيم على بورسعيد الا جانبين لمعركة واحدة

لقد فشلت خطط الاســـتعمار فى مصر واندحر المعتـــدون فى بورسعيد وعادوا الى أوكارهم يجرجرون أذيال الخيبة . وانهـــارت معنويات العدو فى سوريا ، وافتضحت مؤامراته المتعددة عليها .. ونمت الوحدة بين القطرين .. ولكن المعركة فى الجنـــوب ما تزال قائمة . فكان من نتائج فشل المستعمرين فى الشمال ، انهم شددوا الحملة فى الجنوب . واستعملوا كل الوسائل الاجراميـــة ، لعلهم يعوضون بعض ما خسروه من هيبة . فجندوا ما لا يقـــل عن مائة وخمسين ألف جندى مزودين بأحدث الاسلحة وبالحقد والتعصب ،

وأقلتوا كالوحوش الضارية ، على المدن والقرى الآمنة العزلاء ..
فأخذ الوحوش يقتلون ويحرقون ويدمرون ويقتلعون الزروع ويطمرون أقنية الري .. وكأنهم ريح الموت تشيع اليبس أينما هبت .

ولكن الشعب العربي في عمان ، كان ـ منذ القديم ـ وما يزال ، مزودا بأكبر قدر من الصلابة وعمق الايمان .. فساروا كالفدائيين ـ تحت لواء امامهم البطل (غالب بن علي) ، وأخذوا ينزلون بالمستعمرين الخسائر الفادحة . فأرعبوا المستعمرين وبلبلوا صفوفهم ، وأفقدوهم الثقة بأنفسهم .

واذا بالبلاد التي زعموا انهم سيخضعونها في ثلاثة أيام ، تحاربهم منذ أربع سنوات .. دون ان تلين لها قناة .

جنون الدعاية الاستعمارية وأكاذيبها :

حالما شن المستعمرون غاراتهم المفاجئة ، وقاموا بعدوانهم الآثم ، واحتلوا العاصمة نزوى ، بدأت أبواق دعايتهم تجأر بالاكاذيب . وشرعت الصحف البريطانية والاذاعات والكتب ومختلف وسائل الدعاية ترجف وتفترى زاعمة : ان المعركة قد انتهت وان الامامة قد ألغيت .

ولكن لم تمض على هذه الاكاذيب أيام .. حتى كانت المقـــاومة قد عمت أنحاء عمان .. فالتهبت الارض ، تحت أقدام المعتدين . وذهبت أحلامهم بددا .

زعم المستعمرون انهم لم يحاربوا عمان .. وانما كان أجيرهم ، سلطان مسقط هو الذي يحارب لـ « توحيد البلاد » وبما ان السلطان سعيد بن تيمور ، صديق قديم لهم . فلا بد ان يتدخلوا لحمايته .. والا فأين تكون الصداقة ؟

وهكذا فقد تدخلوا .. لا لشيء .. ولا لغرض خاص بهم .. وانما لمجرد حماية « صديقهم » ..

وما قصة هذه الصداقة ، التي تخوض بريطانيا ، من أجلها الحرب ، الا أسطورة جديدة من جملة أساطير الاستعمار .. يريد ان يبرر بها جرائمه التي لا يمكن ان تبرر .

ان بريطانيا المستعمرة .. (العجوز المتصابية) ، بعد ان فقدت نفوذها واعتبارها في كل مكان .. وبعد ان تزعزعت دعائمها وترنحت وآلت الى السقوط ، أخذت تتشبث بكل شيء .. كالغريق .. لعل

تشبثها هذا ، يسند صرحها المنهار • فكانت حملة الدعاية ونشر الاكاذيب من جملة ما تشبثت به •

ولكن هذا الاسلوب لم يجدها شيئا •• فأغراضها الحقيقية التى تود اخفاءها وراء سيل من الاكاذيب ، قد افتضحت • ولم يعد هنالك ثمة قوة تستطيع ان تضلل الناس وان تخفى هذه الشرور •

وقد تولت معظم الصحف العالمية ـ حتى فى البلاد الاستعمارية ـ فضح هذه الاسطورة مع الكشف عن السبب الحقيقى للعدوان :

نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٧ مقالا بعنوان « الحاكم الذى يريد البترول ، سعيد بن تيمور » قالت فيه :

« فى الشرق الاوسط نوعان من الحكام ، الاغنياء بالبترول • واولئك الذين يريدون الاغتناء بالبترول • والسلطان سعيد بن تيمور من الفريق الثانى • والحقيقة ان آماله هذه تقاسمه فيها الحكومة البريطانية وشركات البترول الامريكية والانكليزية • مما جعل حياته معقدة ومشاكله خطيرة • وهذا هو الذى دفعه لان يطلب من (أصدقائه) المقربين من رجال سلاح الطيران الملكى ، الهجوم على حصون امام عمان الشيخ غالب بن على • فمنذ عامين ورجال شركة بترول العراق البريطانيون ينقبون فى عمان • ولكن امامها وأتباعه يهددون السلطان فيضطر للجوء الى البريطانيين من وقت لآخر لحصر الامام فى منطقته ، واذا ما نجح الامام فى هذه المرة • فان السلطان قد يفقد البترول وكذلك تفقده شركة بترول العراق » •

فالبترول اذا ، هو السبب وليست صداقة سعيد بن تيمور •

تقول النيويورك تايمز أيضا :

« والسلطان سعيد بن تيمور ليس غبيا لينسى هذه الحقيقة • بل هو يعى هذا ويعرفه •• ويتعاون معهم على هذا الاساس • فثقافته غربية وهو يقرأ الصحف الانكليزية والامريكية بانتظام • وهو يعلم أيضا انه اذا فقد عمان فسيفقدها الانكليز معه بل سيفقدون معها البريمى • واذا فقدوا البريمى ، يفقدون المشيخات التى تسيطر عليها بريطانيا والتى تجاور السلطان من الشمال • وستكون السيطرة البريطانية على الكويت والبحرين معرضة للخطر والتهديد • ويمكن ان تقع منطقة الخليج كلها فى أيدى العرب » •

وشرحت جريدة لوموند الفرنسية خطة انكلترا في عددها الصادر في ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٧ بما يلي :

« أولا : تركيز عمليات السلاح الجوي البريطاني على قوات الوطنيين العمانيين .

ثانيا : تحصين واحة البريمي حتى لا تتسرب اليها قوات المواطنين

ثالثا : احتلال عمان الداخلية .. بعد ان يكون سلاح الطيران قد شتت شمل الوطنيين .

رابعا : قيام الاسطول البريطاني بحصار الشواطيء وغلق الخليج العربي لمنع تسرب الاسلحة للوطنيين » .

والحقيقة التي لا يمكن اخفاؤها ان بريطانيا ذاتها اضطرت أخيرا لتكذيب نفسها فاعترف بسبب الحملة الحقيقي .

قال سلوين لويد في مجلس العموم البريطاني :

« ان كل ما تقوم به من أعمال ضد شعب عمان . هو تأكيدللصداقة والمودة التي تربطنا بسلطان مسقط » .

فلما سأله أحد نواب المعارضة :

« هل هذه الصداقة تكلف بريطانيا التضحية برجالها ؟ »

اضطر سلوين لويد للاعتراف بالسبب الحقيقي فقال :

« ان بريطانيا ستفقد نفوذها في الخليج وجنوب جزيرة العرب اذا لم تقم بمساندتها للسلطان » .

فالمحافظة على مصالح بريطانيا اذا وحماية نفوذها في الخليج .. هما السبب لا صداقة سعيد بن تيمور .

الفصل العشرون

ثورة يوليو لعام ١٩٥٧

بعد ان قام الانكليز بشن عدوانهم الغادر في عام١٩٥٥ واستطاعوا بزحفهم المفاجيء ان يحتلوا كثيرا من مدن عمان . تحول المناضلون العمانيون الى المعاقل التي لم تسقط في يد العدو ، والى الجبال المنيعة، وخاصة في الجبـــل الأخضر ، يشنون منها المعارك « على طريقة حرب العصابات » على القوات البريطانية ، حتى دوخوها . وبلبلوا خططها (١) كما أفقدوا شركة البترول الراحة والطمأنينة وعطلوا أعمال الشركة في عمان الداخلية .

---

(١) لاحظ خريطة تضاريس عمان ص ٢٠٣



تضاريس عمان

وبدلا من أن يشتت الغزو الاجنبي قوات الامامة ويفض الناس من حول الامام ـ كما خيل للمستعمرين ولأجيرهم سعيد بن تيمور ـ ازداد تعلق العمانيين بالامام وتضاعف احترامهم له . ذلك لان الامام لم يستسلم لانكساره في المعركة الاولى . ولا أطار الفشل الاول صوابه . بل انتقل مع الثوار الى معاقلهم الجبلية المنيعة وأخذ يوجه المعارك ويشارك فيها ـ أسوة بالأئمة الشجعان الاولين ـ وهكذا زاد اعتداد الجيش بقائده .. فأنزل ضرباته القاصمة بالمعتدين .

وظل الامر ـ كذلك ـ عامان .. كانت القوات العربية العمانية الشعبية تتكتل فيها ، وتهرج الافواج الجديدة الى مقر الامام لتنضوي تحت لوائه . وخاصه قوات القبائل استعدادا للمعركة الفاصلة .

فلما تمت الاستعدادات . وجه الشيخ ابراهيم بن عيسى الحارثي سؤاله التاريخي الى سلطان مسقط قائلا : « نريد ان نعرف كيف تحكمنا ؟ »

وأرسل السلطان الماكر (سعيد بن تيمور) الى الشيخ ابراهيم الحارثي ، يدعوه الى مسقط للمفاوضة ، ومنحه الامان . فلما ذهب اليه . غدر به السلطان ـ كعادته ـ واعتقله . وحاول في الوقت ذاته اعتقال شيخ بني ريام . فلم يفلح . فعجلت عملية الغدر ـ هذه ـ في اندلاع نيران الثورة .

أنذر زعماء عمان السلطان مطالبين باخلاء سبيل الشيخ ابراهيم الحارثي . وأمهلوه خمسة أيام ، فلما مضت ولم يطلق السلطان سراح أسيره الكبير . اندلعت نيران الثورة بين القبائل ضده ، وتوحدت عمان . وأجمعت على المشاركة في هذه الثورة . فعمت ـ خلال أيام معدودة ـ كل شبر من البلاد .

وتولى الامام غالب بن علي قيادة الثورة الجديدة .. التي لم تكن الا امتدادا للنضال والمعارك التي استمرت منذ عام ١٩٥٥ .

وكرد على مزاعم الاجنبي وتخرصاته . أعلن الامام غالب بن علي ان المجاهدين صامدون أمام العدو .. وأعلن ان القتال لن يتوقف ، حتى ينتزع العمانيون حقهم من فم الذئاب .. كما أعلن بصراحة .. ان العدوان ليس عدوانا مسقطيا فقط .. وانما هو عدوان بريطاني استعماري سافر .. واننا في كفاحنا ضد قوات الاستعمار التي تفوقنا عدة وعددا ، نعتمد على مساعدة العرب لنا ومؤازرة أحرار العالم .

بدأت الثورة بقيادة الامام غالب بن علي وأخيه طالب بن علي .

فهاجما جيش السلطان والقوات الانكليزية التي تقاتل معه في ١٩ تموز (يولية) ١٩٥٧ ، وكان الضابط البريطاني (بل تشسمان) يقود القوات المعادية ، فهزم امام قوات الشعب العماني في شوارع نزوى رغم انتصار الامام عليه ·

فأرعب الموقف سعيد بن تيمور فطلب النجدة البريطانية في اليوم ذاته ·

واضطر أحد المسئولين الانكليز بأن يعترف ان الوطنيين العمانيين يسيطرون على المنطقة الداخلية في عمان ، وان قوات السلطان قد تكبدت خسائر كبيرة أثناء المعركة التي دارت بينها وبين قوات الوطنيين ·

وسرى الرعب من قلب سلطان مسقط الى قلب الحكومة الانكليزية وخافت من ان يتحول النصر الذي أحرزته الثورة العربية في عمان الوسطى الى نصر شامل · فاضطربت الحكومة الانكليزية في لندن وتناقلت أسلاك البرق والصحف والاذاعات ، أخبار عمان الباسلة ·

ودارت المناقشات في مجلس العموم البريطاني ، فأعلن سلوين لويد : عن عزم حكومته على الرد ـ بقسوة ، على الثورة وقال :

« ان القوات البريطانية قد تحركت ·· وان سلطان مسقط قد طلب المعونة منا فأجيب الى طلبه » ·

وفي ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٥٧ بدأت القنابل الصاروخية البريطانية بغاراتها الوحشية على المعاقل التي يحتلها الامام وقواته · واهتزت الامة العربية لسماع أخبار العدوان البريطاني الجديد · وقامت المظاهرات الصاخبة وعقدت الاجتماعات وطيرت الاحتجاجات الصارخة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي ، مطالبة بتقديم المعونة الجدية الى عمان ·

وتحقق للملأ العربي ، ان معركة عمان انما هي معركة العرب قاطبة وان على بريطانيا ـ لكي تستطيع اخضاع الشعب العربي في عمان ـ ان تخضع العرب في جميع أقطارهم ·

ومادت الارض تحت أقدام الانكليز ·· في كل موقع لهم على سواحل الخليج · ففي البحرين بلغ الهياج ذروته · وفي قطر وفي الكويت وفي عدن ·· وفي اليمن الجنوبية والعراق ·· وفي كل مكان ·· ارتفعت الاحتجاجات ونشبت معارك الشوارع ضد المحتلين ·

وشرع الانكليز ينقلون قواتهم على عجل ، من قبرص وكينيا

والبحرين ومن المستعمرات الاخرى ، لتعزيز قواتهم المضعضعة ، بعد ان أصابها الارتباك والتفكك ، نتيجة اصرار الشعب العماني ، وعزمه على تحقيق أمانيه الوطنية ومثله ٠

وفي تموز (يوليه) ١٩٥٧ وجه الامام غالب بن علي ، نداءه الشهير الى العالم العربي والى الدول العربية والى الجامعة العربية لمد يد المساعدة للشعب العربي في عمان ، مساندة له في كفاحه المقدس ضد الاستعمار الغاشم ٠

فهز ـ هذا النداء ـ مشاعر الشعب العربي ٠٠ وهدم ـ بلمحة بصر ـ كل تلك الحواجز المصطنعة

وبدت عمان ٠٠ جزءا لا يتجزأ ، من كيان الامة العربية ٠ ومثلا حيا من أمثلة البطولة والفداء لكفاح الامة العربية المجيدة ٠

وزادت ، ثورة الامام ـ بعد هذا النداء ـ اشـــتعالا ٠ فتجددت الهجمات في كل بقعة من عمان ٠ واستولى الامام على حصن بهلا في عمان الوسطى ثم على منطقة الفهود ٠ كما حاصر الانكليز في المناطق الاخرى ٠

فكان الرد البريطاني غارات وحشية مجنونة بالطائرات والصواريخ والمدافع الثقيلة ٠

ففي ٢٦ تموز ١٩٥٧ ، أعلن سلوين لويد : ان سلاح الطـيران الملكي قد بدأ عملياته ٠

وكان هذا السلاح ، قد بدأ عملياته فعلا ٠ ولكن لا ضد المجاهدين في الجبهة أو المعاقل ٠ بل ضد المدن الآمنة ٠ فدمر في ٢٧ تمـــوز ـ بالصواريخ والقنابل ـ مدينتي نزوى ـ العاصمة ـ وازكي ، تدميرا كاملا ٠ وقتل نساءهما وأطفالهما والعجز فيهما بلا تفريق ٠٠ فناشد الامير الحارثي ـ نائب امام عمان الشرعي ـ جميع الامم المحبة للسلام ، وجمعيات الصليب الاحمر الدولية ، تقديم المساعدات الطبية للجرحى واللاجئين ٠

وفي ٣١ تموز ١٩٥٧ تبين للسلطات البريطانية مدى صلابة المقاومة الوطنية وعنف المعارك التي تخوضها ٠ وأدركت ان هذه المعارك انما تزيد في نيران الثورة العربية في عمان اشتعالا ٠ واضطرت ان ترسل أحد كبار قوادها (الجنرال جوفري بودن) لمفاوضة سلطان مسقط ، والاتفاق معه على تعزيز القوات الانكليزية ٠٠ بارسال قوات جديدة

الى ميادين عمان · والا قضت الثورة العربية على العدوان وعلى قمواه الاحتياطية (حكام مسقط) قضاء مبرما ·

وأرسلت القوات البريطانية ـ للمرة الثالثة ـ بكميات كبيرة وعلى عجل ·· وبدأت هجوما مركزا جديدا بقيادة (روبرتسون) قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط ·

وبدأ هذا القائد ، خطة لشق الطريق الى المدن العمانية المهمة ولا سيما الى العاصمة نزوى ·

فكان المجاهدون العمانيون ، يقابلون خطط روبرتسون ، بخطط معاكسة تحبطها · فتعرقل سير الحملة وتكبدها الخسائر الفادحة ·

حتى ان القادة البريطانيين بدأوا يلاحظون ان طول المعارك وامتداد الحرب لا بد ان تؤدي الى تحطيم النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي ·· وكل مناطق النفوذ الانكليزية الاخرى في الشرق الاوسط، نهائيا ·

وها قد مضى ـ الآن ـ عامان آخران على ثورة يوليو ١٩٥٧ ·· وعلى العدوان الانكليزي الغاشم ·· وعلى عمليات الحرق والتـــدمير والتقتيل بالجملة ·

ارتفعت قوات الانكليز ـ خلالها ـ الى (١٥٠) ألفا بالاضافة الى قوات الخائن سعيد بن تيمور · مزودة بالاسلحة الحديثة والمعـــدات الكافية وبالطائرات والصواريخ وكل أنواع آلات التدمير ـ دون ان تستطيع انكلترا أو أعوانها كسر شوكة الشعب العماني أو اخضاعه لقانون القوة والعدوان ·

نعم ـ اليوم ـ وبعد مضي سنتين كاملتين ·· يخوض شعب عمان الباسل معركة فاصلة رهيبة تشمل الجبل الاخضر وسفوحه ·· وتمتد منها الى جميع الجهات ·· اليوم ·· دور المعارك الرهيبة في تنوف وفرق والبركة والشريجة وكمه ·· والعوابي ·· معارك يريد الانـــكليز ان يحولوها الى مجازر بشرية ·· وقد استطاعت أسلحتهم الثقيلة أن تفعل ذلك في بعض الجهات ·

نعم اليوم ·· اذ أسمع ·· باذني وعواطفي وعقلي ·· صـــوت عمان الباسلة تستنجد بالامة العربية ·· ان ترمي بثقلها في هــذه المعركة الضروس ·· أؤمن ايمانا لا يتزعزع بأن عمان ستتحرر ·· وانها ستلقي بالاستعمار وأعوانه ·· الى البحر ·· وتكنس أرضها

الطيبة من أرجاسهم ·· وتعلي في ربوع الجبل الاخضر ـ المخضبة صخوره بالدم ـ راية القومية العربية ·· راية التحرر ·· والانعتاق والامن والوحدة ·

ماذا يريد الشعب العربي في عمان :

وبعد ·· فقد افتضحت ألاعيب الاستعمار الانكليزي في عمان وفي غير عمان ··

وأدرك الشعب العربي ـ في كل مكان ـ ما هي أغراض المستعمرين من وراء أعمال العدوان الاثيمة ·· كما أدركت الامة العربية ـ أكثر من كل شيء ـ ان هذه المآسي لا يمكن ان تنتهي ، الا اذا قضي على الداء واجتثت جذوره من الاساس ·

وان الامة العربية لا بد ان تقضي عليه · فقد بدأت نضالها ضده ، في جبهة واحدة · متراصة ، تمتد من الخليج الى المحيط · وعززت وحدة نضالها بالقول والعمل ·· في الداخل وفي الخارج ·· وبعثت المعركة روح الوحدة والاخاء في صفوف المجاهدين · فحقق العمانيون هذه الوحدة على خير وجه ·

فأبناء المدينة وأبناء القرية ·· القبائل الحضرية والبدوية ·· ـ عرب الشمال وعرب الجنوب ·· وكل عربي يعيش في عمان ، يدرك ان المعركة انما هي معركته الشخصية ·· المعركة التي ترتبط بها سعادته أو شقاؤه ·· وسعادة أبنائه وأحفاده ، أو شقائهم ، وانه اذا لم يبذل ـ لها ـ من ماله ودمه فلن يستطيع كسبها ·

لذلك فقد صمم الشعب العربي في عمان ، على المضي في المعركة ، حتى نهايتها الطيبة · حتى النصر · وأعلن : انه لن يغمد سلاحه الا اذا حقق أهدافه الكبرى ·

ووقف قائده المجاهد الامام غالب بن علي في ٤ آب ١٩٥٧ ليعلن ـ بنفس الاصرار والعزم ـ ان القتال لن يتوقف ·· حتى ينتزع العمانيون حقهم كاملا في الحرية والاستقلال والسيادة ·· ان الشعب العماني ، لن يقبل بوقف القتال ، الا اذا اعترف المعتدون باستقلال عمان ·

وقد وجه الامام نداءه ـ هذا ـ الى المجاهدين المناضلين في عمان وناشدهم فيه باسم الدين والمثل وباسم القومية العربية ، الوقوف صفا واحدا في وجه المعتدين ·

فماذا يريد ان يحقق شعب عمان ٠٠ لوطنه بعد النصر ؟٠٠

وماذا يريد الشعب العربى لعمان المجاهدة البطلة ؟٠

عمان المستقبل ؟٠٠

يريد الشعب العربى فى عمان ٠٠ ان ينتصر ٠٠ ليحقق لعمان الاهداف الوطنية الكبرى التى يكافح من أجلها كل شعب ٠٠ نجملها فيما يلى من النقاط :

أولا : تحرير الوطن العمانى ساحلا وداخلا ، من الاستعمار الانكليزى ومن حكم العملاء والاذناب والخونة أمثال سعيد بن تيمور وحكومته ٠ ومن التدخل الامريكى الذى بدأ يتسلل لنهب ثروات عمان الدفينة ٠ ومن حكم الاقطاع والرجعية ، التى يسندها الاستعمار ويقويها ٠ ومن شركات الاستعمار الاحتكارية ومؤسساته٠ ومن جميع القوى الاحتياطية الاخرى التى تقف الى جانبه ضد الشعب٠

ثانيا : تثبيت الحكم الديمقراطى الشرعى القائم على نظام الشورى والانتخاب ٠٠ ألا وهو حكم الامام غالب بن على المنتخب من قبل الشعب ، والذى يمثل ارادة الشعب ، ويعتمد على مشورته ٠ وذلك لكى ينتعش الشعب العربى فى عمان ، وينهض فى ظل حكم عادل تسوده المساواة واحترام حقوق الرعية ٠ والايمان بالمثل الديمقراطية التى كانت منذ القديم ، تقود شعب عمان الباسل نحو القوة والعزة والمنعة ٠٠ والتقدم ٠ وتعميم ذلك فى عموم أنحاء عمان ساحلا وداخلا ٠

ثالثا : تحقيق الوحدة الوطنية ومحو آثار الحمية الجاهلية الى الابد ٠٠ وتطوير الشعب العربى وضمان تقدمه ونشر التعليم والصحة والامن بين ظهرانيه ٠

رابعا : تحقيق السيادة الكاملة لعمان ٠ والاستقلال التام الناجز ٠ فى ظل حكم الشعب ٠ دون ان ينازع الشعب العربى فى عمان ـ على هذه السيادة ـ منازع ، داخليا وخارجيا ٠ مع طرد المستعمرين من الجزر ، وتحقيق الوحدة الوطنية بين هذه المناطق الطبيعية فى ظل الاستقلال وسيادة الشعب ٠

خامسا : تحرير البلاد سياسيا من التبعية واقتصاديا واجتماعيا ٠ فى وقت واحد ٠

سادسا : تصنيع البلاد ، تصنيعا حديثا ، واستثمار ثرواتها

المعدنية لصالح الشعب · ورفع مستوى الزراعة · وتعميم الرى · وفتح الطرق · وتوثيق علاقات عمان ببقية أجزاء الوطن العربى ·

سابعا : توثيق علاقات عمان بالامة العربية وربط كفاحها بكفاح الامة العربية ، في سبيل تحقيق اماني العرب الكبرى فى الوحدة والتحرر والتطور ·

وهكذا يتاح لعمان العربية المستقلة المنتصرة ·· ان تلحق بالركب العربي ، وان تنضم الى موكب الطليعة المتحررة في البلاد العربية · وان تساهم جديا في تحقيق نهضة الامة العربية · وتحقيق وحدتها الشاملة ·· واحتلال مكانها الطبيعى فى سلم الحضارة الانسانية الحديثة ·

هذا ، ما يدفع المجاهدون العمانيون العرب ، دماءهم فى سبيله ·· ولا بد ان يؤخذ ، عنوة واقتدارا ، ما تبذل في سبيله الدماء ·

ان معركة عمان معركتنا ·· معركة الجمهورية العربية المتحدة ·· معركة الجزائر وفلسطين · معركة العراق ولبنان والاردن ·· وكل بقعة عربية أخرى ·

انها معركة القومية العربية ضد الاستعمار واعوانه ·· وقواه الاحتياطية فى الداخل والخارج · من أجل التحرر وانشاء وطن أفضل

وما الحركة الوطنية فى عمان الا جزءا من الحركة الوطنية العربية العامة ·· وهى من أنقى هذه الحركات ·· وأكثرها اصالة ، واشدها اتصالا بنضال العرب · لانها حركة تنبع ـ فى الاساس ـ من أعماق الشعب · وتهدف الى احياء أجمل القيم من تراث الشعب العربى فى عمان · تلك القيم الرفيعة التى كانت للشعب العمانى ـ على ممر العصور ـ منارة وهدى ·

والحركة الوطنية العمانية لا بد ان تنتصر ·· لانها :

أولا : تعتمد على تأييد الجماهير فى المدن والقرى·· وبين العشائر·

ثانيا : لان رائدها وشعاراتها ، اقامة حكم ديمقراطي يعتمد على الشورى فى الحكم ، وينبع من ارادة الشعب · ويهتدى ـ بهذه الارادة ـ قبل كل شئ ·

ثالثا : لانها حركة عربية أصيلة ، تعتمد على تأييد الشعب العربى فى كل مكان ·· وتقوم على أساس توحيد عمان ·· وربط كفاحها مع كفاح العرب التحررى الثورى · الاشتراكى ·· المتطور ·

رابعا : لانها ربطت ـ منذ اللحظة الاولى ـ مصيرها بمصير حرية العرب ووحدتهم ٠ وبمصير الحرية في العالم ٠٠ واستمدت من تأييد الشعوب المحبة للحرية والمكافحة للاستعمار عونا لها وسندا ٠

فلا بد ان يكون ـ والحالة هذه ـ انتصار الشعب العربي في عمان، مرحلة جديدة من مراحل الوحدة العربية الشاملة ٠ والقضـــــاء على التدخل الاستعماري ، وانهاء احتكاراته واجتثاث مصالحه من أرضنا الطيبة ٠٠

لقد أفاقت بريطانيا في تموز ٠٠ ثلاث مرات على التوالى (في عام ١٩٥٢ وفي عام ١٩٥٧ وفي عام ١٩٥٨) . لتجد قلاعها تتصـــدع وتنهار تحت ضربات النضال العربي ، بعد ان ظلت صامدة لزمن طويل ٠٠ ولتجد خدامها الاوفياء ٠٠ الذين أفنوا أعمارهم في تعفير جباههم على أقدامها ٠٠ وفي تدعيم مصالحها يتساقطون كالخـــرق البالية ، تدوسهم أقدام شعوبهم ٠

فانهارت أعصابها ـ التي طالما فاخرت بمتانتها ـ وطاشت سهامها ٠٠ فاذا هي تقود اعتداءات انتقامية أثيمة ضد شعب عمان الاعزل ٠ واذا هي ترتكب مجازر بشرية رهيبة ، تقشعر لها الابدان ٠٠ ضد الابرياء والشيوخ والنساء والعزل من السلاح ٠٠ دون ان تدرك ان ساعاتها الاخيرة قد دنت ٠٠ وان الارض ـ بأسرها ـ تميد تحت أقدام الاستعمار المستعمرين ٠٠ جملة وتفصيلا ٠ وان النصر الاخير للشعب ٠

وان حرية العرب ، ووحـــــدتهم ، وتطورهم ٠٠ الديمقراطي ، الاشتراكي التعاوني السليم ٠٠ انما هو قدر آت لا ريب فيه ٠

تـم الكتاب

كتب قومية

العدد القادم

المؤامرة

على بترول العرب

بقلم

محمود الشرقاوى

يصدر يوم الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩٥٩

الثمن قرشان

فهرس

النفوذ الانكليزى : تغلغله . تطوره منافسوه ٩٩
أثر التدخل الأجنبى فى انقسام عمان ١١٢
أول معاهدة بين بريطانيا وبلاد العرب ١١٨
سياسة تدمير الأسطول العربى ١٢٥
نهوض القبائل فى الشمال يساند النهوض القبائل فى الجنوب ١٣٦
التدخل الانكليزى فى القرنين الأخيرين ١٤٩
محصلة الاستعمار الانجليزى فى مسقط وعمان ١٥٧
استقلال عمان الداخلية ١٧٠
تدخل الاستعمار الأمريكى ضد شعب عمان ١٨٠
العدوان البريطانى فى عام ١٩٥٥ .. .. ١٨٩
ثورة يولية عام ١٩٥٧ .. .. ٢٠٢

خرائط

موقع عمان بالنسبة للهند ٩٨
موانىء الأسطول العربى ١١٥
تضاريس عمان ٢٠٣

صدر يوم الأحد ٣ مايو ١٩٥٩

دار القاهرة للطباعة